في

الفلسفة الطبيعية

عند الجاحظ

الكتاب : في الفلسفة الطبيعية عند الجاحظ

الطبعة الأولى

١٩٩٥م / ١٤١٦هـ

في الفلسفة الطبيعية

رقم الإيداع : ٩٥/٥٩٢٢
I.S.B.N.977-5502-13-6

الناشر : دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع

في

الفلسفة الطبيعية

عند الجاحظ

د. محفوظ علي عزام

أستاذ الفلسفة الإسلامية المساعد

كلية الدراسات العربية

جامعة المنيا



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذى أعاننى على إنجاز هذا البحث المتواضع، والصلاة والسلام على الرسول الشافع. وبعد.

فهذا بحث يتناول جانبا مهما لدى مفكر كبير من مفكرى الإسلام وهو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ الذى عاش في القرنين الثاني والثالث الهجريين. هذا الجانب هو الفلسفة الطبيعية؛ فالجاحظ ـ كما يتضح من مؤلفاته العديدة ـ كان مهتما بدراسة جوانب الطبيعة المختلفة، وفي مختلف ظواهرها، سواء كانت جمادات أو معادن أو نباتات أو حيوانا أو إنسانا. كما كانت دراسته تقوم على الملاحظة والتجربة، في محاولة منه لاستنباط القوانين التى تخضع لها الطبيعة، ولإبراز حكمة الله تعالى في الخلق والتكوين. وهذا هو معنى أن "الجاحظ" فيلسوف طبيعي، إذ ليس معنى القول بالفلسفة الطبيعية عند الجاحظ، أن الجاحظ يقول إن المادة مكتفية بخصائصها الطبيعية ومكتفية بنفسها، فهذا

قول الدهريين والطبائعيين سواء أكانوا قدماء أو محدثين . والجاحظ يبرأ إلى الله من هذا الفهم وذاك القول ، بل إنه شن حملة عنيفة على الدهريين والطبائعيين وقال بأن الله عز وجل هو علة الكون وسبب الأسباب وأن كل شيء خلق بحكمة ولحكمة أرادها له الخالق جل وعلا .

والحق أن أصالة أبي عثمان تتجلى في أبحاثه في هذا الجانب المهم . وتتجلى هذه الأصالة عند ما نقارن بينه وبين فيلسوف كبير من القدماء وهو "أرسطو" . ومن هنا جاءتني فكرة هذا البحث ، لأثبت أصالة هذا الرجل في حقل الفكر الإسلامي ، وفي جانب لم يهتم به الباحثون كثيراً ، ولعل ما حفزني لإثبات هذه الأصالة أني قرأت قولاً لعبد القاهر البغدادي في كتابه : الفرق بين الفرق يقول فيه إن الجاحظ قد " سلخ معاني كتاب الحيوان لأرسطاطاليس ، وبعد البحث وجدت أن هذا القول خطأ من البغدادي وليس قائماً على برهان علمي صحيح ومن ثم لا يمكن قبوله بحال من الأحوال .

ولا أستطيع – بطبيعة الحال – الادعاء بأني أحصيت كل ما قاله الجاحظ في طبيعياته ، فهذا أمر

عسير المنال نظرا لضخامة ما كتبه الجاحظ وما أجراه من دراسات وأبحاث في هذا المجال، ومن ثم اكتفيت بأن ألقي نظرات على هذه الفلسفة، ولكني أعتقد أنها نظرات ليست عابرة، وإنما هي نظرات فاحصة متأنية تعبر عن مقصودي من هذا البحث.

على أية حال يجيء هذا البحث في ستة فصول بعد هذه المقدمة القصيرة. ولقد عالج الفصل الأول منها مكانة الجاحظ العلمية والفكرية وقواعد المنهج العلمي عنده، بينما تناول الفصل الثاني جوانب الفلسفة الطبيعية عند الجاحظ ومعنى هذه الفلسفة لديه. وفي الفصل الثالث حديث عن مفهوم الجماد أو الموات أو غير النامى، وما يتصل بهذا الجسم من مفاهيم فلسفية كالجزأ الذى لا يتجزأ والجوهر والعرض والمداخلة والمجاورة. أما الفصل الرابع فيعالج موضوع الحيوان عند الجاحظ متحدثا عن مصادر الجاحظ في علم الحيوان، والسبب في تأليفه لهذا الكتاب وهو معارضة كتاب الحيوان لأرسطو، وكذلك موردا مقارنات بين أرسطو والجاحظ في وصف بعض الحيوانات وما تفوق به كل واحد منهما على الآخر في بعض القضايا، وما تميّز به الجاحظ

علـى أرسـطو، وموقفـه منـه. والفصـل الخـامس وإن كان مكملا للرابع من حيـث إنـه متعلـق بـالحيوان إلا أنه يتناول إبداعات الجاحظ في مجالين مهميـن وهمـا علم نفس الحيوان ونظرية التطور، وهما مـن العلـوم الحديثة، وبالتالي يفهم من هذا أن الجاحظ كان سـابقا لعصره وما بعد عصره. أما الفصل السادس والأخير فهو عـن الإنسـان عنـد أبـى عثمـان، فيتنـاول مفهـوم الانسان عنده، ومكانته، وكذلـك العقل والنفس، ومـا تمـيز بـه الجـاحظ فـي هذا المجـال، وأيضـا تناولـه للإنسـان ككـائن اجتمـاعي، وأخـيرا مـا يتضـح لـدى الجاحظ من نزعـة إنسانيـة، نحـن فـي أمـس الحاجـة إليها في وقتنا الحاضر .

فإن كنت قد وفقت في معالجة هذه القضايـا فمـن الله التوفيق، وإن كانت الأخرى فحسبى أنى حاولت. هذا والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل.

د. محفوظ علي عزام
١٩٩٥/١/٢٦

الفصل الأول

مكانة الجاحظ ومنهجه



أ ـ مكانة الجاحظ العلمية والفكرية:

أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، متكلم وفيلسوف ولغوي وعالم طبيعي وأديب ومؤلف قلما يجود التاريخ بمثله. وإذا استثنينا خصوم المعتزلة من الحكم على مكانة الجاحظ فسوف نجد المادحين له قديما وحديثا أكثر من أن يحصوا .

ولا عجب في ذلك؛ فالجاحظ كان يجل القرآن والسنة والصحابة والتابعين حيث نجده يقول: "أحببنا أن نصيّر صدر هذا الباب كلاما من كلام رسول رب العالمين، والسلف المتقدمين، والجلة من التابعين، الذين كانوا مصابيح الظلام، وقادة هذا الأنام، وملح الأرض ـــ أي بركة الأرض ـــ وحلي الدنيا، والنجوم التى لا يضل معها الساري، والمنار الذى يرجع إليه الباغي... وهم الذين جلوا بكلامهم الأبصار الكليلة، وشحذوا بمنطقهم الأذهان العليلة، فنبهوا القلوب من رقدتها، ونقلوها عن سوء عادتها، وشفوها من داء القسوة، وغباوة الغفلة، وداووا من العي الناضح ونهجوا لنا الطريق الواضح"(١).

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ٢ ص ٥ ـ ٦ .

وكان يرى أن كتب الله تعالى أفضل الكتب وليس كتب الزنادقة والملحدين؛ فكتب الله "أكثر من كتبهم نفعا، وأشرف منها خطرا، وأحسن موقعا؛ كتب الله تعالى، فيها الهدى والرحمة، والإخبار عن كل حكمة، وتعريف كل سيئة وحسنة"(١). أما كتب الزنادقة فليس فيها "مثل سائر ولا خبر طريف، ولاصنعة أدب، ولا حكمة غريبة، ولا فلسفة، ولا مسألة كلامية، ولا تعريف صناعة، ولا استخراج آلة، ولا تعليم فلاحة، ولا تدبير حرب، ولا مقارعة عن دين، ولا مناضلة عن نحلة، وجل ما فيها ذكر النور والظلمة، وتناكح الشياطين، وتسافد العفاريت، وذكر الصنديد، والتهويل بعمود السنخ.. وكله هذر وعيّ وخرافة، وسخرية وتكذب، لا ترى فيه موعظة حسنة، ولا حديثا مونقا، ولا تدبير معاش، ولا سياسة عامة، ولا ترتيب خاصة. فأي كتاب أجهل، وأي تدبير أفسد من كتاب يوجب على الناس الإطاعة، والبخوع بالديانة، لا على جهة الاستبصار والمحبة، وليس فيه صلاح معاش ولا تصحيح

---

(١) الجاحظ: الحيوان، ج ١ ص ٨٦ .

دين"(١).

إن الجاحظ متكلم مسلم مؤمن يدافع عن إسلامه وإيمانه بكل ما أوتي من قوة في قلبه وعقله وفكره ضد كل من يحاول الغضّ من شأن الإسلام وعقائده، كل ذلك بأسلوب علمي رصين، ومن خلال ثقافة عصره الواسعة، ومن خلال ثقافته الإسلامية العميقة، وقدرة على استخدام المنطق السليم والبرهان العقلي الصحيح.

من أجل هذا عدّ الجاحظ شيخ المتكلمين حتى إن ثابت بن قرة يقول فيه: "ما أحسد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة أنفس، أولهم: عمر بن الخطاب.. والثاني: الحسن بن أبى الحسن البصري.. والثالث: أبو عثمان الجاحظ ــ خطيب المسلمين، وشيخ المتكلمين"(٢).

وقد قال ابن نباتة عن الجاحظ إنه "إمام الفصحاء والمتكلمين، الذين ملأت الآفاق أخباره وفوائده حتى قيل: مما فضل الله تعالى به أمة محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الأمم: عمر

---

(١) الجاحظ: الحيوان ج ١ ص ٥٧ ـ ٥٨ .

(٢) التوحيدي: المقابسات ص ٥٢ ـ ٥٦ .

ابن الخطاب بسياسته، والحسن البصري بعلمه، والجاحظ ببيانه"(١).

ويقول عنه المسعودي ـ وهو أحد خصومه ـ إنه "لا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتبا منه"(٢). وهي كتب "تعلم العقل أولا، والأدب ثانيا"(٣).

ويذكر ابن المرتضى أنه "لا يعرف كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه وأنه حجة لمحمد صلى الله عليه وسلم على نبوته غير كتاب الجاحظ. وهذه كتبه في إثباة الرسالة وكتبه في تصحيح مجيء الأخبار مشهورة"(٤). ويقول ابن المرتضى في موضع آخر: "فمن قرأ كتاب عمرو الجاحظ في الرد على المشبهة وكتابه في الأخبار وإثبات النبوة وكتابه في نظم القرآن علم أن له في الإسلام غناء عظيما لم يكن الله عز وجل ليضيعه له"(٥).

---

(١) ابن نباتة: سرح العيون بشرح رسالة ابن زيدون ص ٢٤٨ .

(٢) المسعودي: مروج الذهب، ج ٤ ص ١٣٥ .

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج١ ص ٣٨٩ .

(٤) ابن المرتضى: طبقات المعتزلة ص ١٥٤ ـ ١٥٥ .

(٥) المصدر السابق ص ٢٢ .

فالجاحظ هو نسيج وحده في جميع العلوم؛ "جمع بين علم الكلام والأخبار والفتيا والعربية وتأويل القرآن وأيام العرب، مع ما فيه من الفصاحة، وله مصنفات كثيرة نافعة في التوحيد وإثبات النبوة وفي الإمامة وفضائل المعتزلة وغير ذلك"(١).

ولهذا قيل عن مذهب الجاحظ إنه "مدبّر بأشياء لا تلتقى عند كل إنسان ولا تجتمع في صدر كل أحد: بالطبع والمنشأ والعلم والأصول والعادة والعمر والفراغ والعشق والمنافسة والبلوغ، وهذه مفاتح قلما يملكها واحد، وسواها مغالق قلما ينفك منها واحد"(٢).

والجاحظ رائد في علم مقارنة الأديان ومجادلة اليهود والنصارى وغيرهما من الديانات(٣). كما أنه رائد في مجال علم نفس الحيوان وهو علم من العلوم الحديثة.

كما أن الجاحظ هو الواضع الأول لعلم "البلدان" وتأثيرها فيمن يعيش فيها من البشر(٤). وإن

---

(١) المصدر السابق ص ٦٧ .

(٢) أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة ج ١ ص ٦٦ .

(٣) له رسالة في الرد على النصارى، وقد حققها صديقنا الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي .

(٤) طه الحاجري: الجاحظ ـ حياته وآثاره ص ٣٩٢ .

كان غيره قد سبقه في الحديث عن هذا الميدان إلا أنهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه الجاحظ وبذلك يعد الواضع الحقيقي لهذا العلم.

ونستطيع القول بأن الجاحظ يعد أول واضع لكتاب عربي جامع في علم الحيوان، وإن كانت قد سبقته محاولات لطائفة من علماء اللغة والرواة مثل أبى حاتم السجستاني في الإبل والوحوش والطير والنحل والحشرات، والنضر بن شميل وأبى عبيدة وغيرهم يتحدثون فيها عن الحيوان. غير أن هذه الكتب لم تؤلف للقصد العلمي الخالص، ولم تكن على نمط كتاب الجاحظ، وإنما أريد بها أن تكون باحثة في اللغة أولاً، فهي بمثابة معجمات لغوية، خاصة بما ألفت له، فهي لا تبحث في طبائع الحيوان وعاداته وخصائصه وغرائزه، ولا تعنى بأحواله وعاداته، وإنما تجعل همها اللغة، وقد يكون منها ما يبحث في الحيوان بحثا علميا، ولكن ذلك كان على سبيل الاستطراد ومشايعة القول(١).

ولقد كان أثر الجاحظ واضحا وملموسا في أكثر الكتب والمؤلفات العربية التى توالت بعده وبعد كتابه الحيوان. وكذلك كان أثره كبيرا في كثير من

---

(١) عبد السلام هارون: مقدمة تحقيق كتاب الحيوان ج ١ ص ١٤ .

مؤلفات الغرب التى تبحث في مجال علم الحيوان لأن هذا العالم المسلم الكبير كان جريئا فيما ذهب إليه من استنتاجاته والأخذ بها. فقد برهن الجاحظ عن دقة ملاحظة وقدرة هائلة على التصوير العلمي وإظهار المفارقات والخصائص التى تميز حيوانا من آخر، لأنه كان يعنى عناية فائقة في تقصى التفاصيل والجزئيات وربطها بقرائنها. وهو كعالم حيوان كان يحاول أن يصنف، وكان تصنيفه بدائيا في بعض الأحيان، وإن كان لم يفارق ما سبقه من تصنيف. فالتصنيف الحق والعلمي وليد القرن الثامن عشر، أي بعده بنحو تسعة قرون(١).

وكان الجاحظ يحاول أن يضع القاعدة؛ فمثلا يحدثنا عن الأرجل، ويذهب إلى أنها تكون أزواجا، فإذا ما سمع بحيوان له مائة رجل لم ينكره، ولكن إذا نقصت واحدة منها أنكره .

والجاحظ أول عالم من علماء الحيوان التجريبيين، فقد كان يتذوق طعم الحيوان حتى السام منها كالعقرب مثلاً، ويجرى التجارب المختلفة

---

(١) د. أحمد حماد الحسينى: مقال "كتاب الحيوان للجاحظ" مجلة تراث الانسانية، القاهرة ١٩٦٤ ج ٢ ص ٢٢٣ .

ليتعرف على سلوك الحيوان وغرائزه وخصائصه وتكونه وغير ذلك.

كما أن الجاحظ أول عالم درس سلوك الحيوانات وطرق التعاون والتكافل بينها؛ فمن ذلك أنه يصف لنا التمساح وصفا بديعا وعلاقته بأحد الطيور فيقول: "بأنه ـ أي التمساح ـ مختلف الأسنان فينشب فيه اللحم فيغمه، فينتن عليه، وقد جعل في طبعه أن يخرج عن ذلك إلى الشط ويشحى (يفتح) فاه لطائر يعرفه بعينه يقال إنه طائر صغير أرقط، فيجيء من بين الطير حتى يسقط بين لحييه ثم ينقر بمنقاره حتى يستخرج جميع ذلك اللحم فيكون غذاء له ومعاشا، ويكون تخفيفا عن التمساح وترفيها؛ فالطائر الصغير يأتي من هنالك يلتمس ذلك الطعم، والتمساح يتعرض له لمعرفته بذلك منه". وهذه مشاهدة صادقة معروفة عن تمساح النيل، والطائر اسمه "الزقزاق المصري"، وقد أخذ يقل من مصر بعد اختفاء التمساح منها(١).

ويضاف إلى هذه المكانة العلمية والفكرية للجاحظ أنه كان يؤمن بالتطور تبعا لتغير الأحوال

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٢٠ .

والأزمان، فهو يقول: "ولكل زمان ضرب من المصلحة، ونوع من المحنة، وشكل من العبادة"(١).

ومكانة الجاحظ العلمية والفكرية تلك، كان يحس هو بها اعتدادا واعتزازا، حيث يقول: "حالي أن الوزير يتكلم برأيي، وينفذ أمري، ويواتر الخليفة الصلات إليّ"(٢). وكيف لا، وهو صاحب هذه المكانة الرفيعة والمرتبة العالية في مجال العلم والفكر؟ وكيف لا، والجاحظ من المؤسسين الرواد للمنهج العلمي التجريبي في الإسلام؟ وبذلك عدّ فيلسوفا طبيعيا.

ب ـ قواعد المنهج العلمي عند الجاحظ:

يعتمد منهج الجاحظ في بحوثه ودراساته على عدة قواعد، من أهمها استخدام الاستقراء القائم على الملاحظة والتجربة، والروح النقدية العالية، والشك المنهجي في كل ما يعرض له من دراسة وبحث، والنزاهة والموضوعية والإنصاف. وهذه كلها من

(١) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ١ ص ٧ .

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج ١٢ ص ٢١٩ .

الأمور المعروفة في المنهج العلمي وخصائص التفكير العلمي الحديث.

وفيما يتعلق بالقاعدة الأولى نستطيع القول بأن الجاحظ كان من أشهر العلماء المسلمين في مجال استخدام التجارب والبحوث والمشاهدة في أثناء وضع مؤلفاته وبخاصة في كتابه "الحيوان"، وقل ما كان يؤمن أو يصدق بكل ما يسمع، لذلك كان الجاحظ يهرع دائما للتثبت مما يسمع عنه، كلما سنحت له الفرص، حيث يلاحظ ويختبر في وقت كان التحقيق العلمي لا يزال في طفولته المبكرة، والخرافات والأساطير منتشرة بين الناس بصورة شائعة.

يقول الدكتور حسين فرج زين الدين في هذا الصدد: "للجاحظ في الحيوانات ملاحظات ومشاهدات تميزه عن غيره من فلاسفة وكتاب تلك العصور ممن كتبوا في الحيوان، وتقربه إلى ناحية العلم أكثر منهم، بل إن له بالفعل بعض تجارب علمية أجراها بنفسه، وهي وإن كانت لا ترقى إلى مرتبة التجارب المعملية إلا أنها ولا شك بداية طيبة ومبادرة منه على طريق العلم التجريبي"(١).

---

(١) د. حسين فرج زين الدين، د. رمسيس لطفي: دراسات في علم الحيوان ورواد التاريخ الطبيعي، القاهرة، بدون تاريخ ص ٤٢٢ .

وكان الجاحظ ـ في منهجه التجريبي ـ يتدرج في أساليبه في البحث والتقصي، تدرجا عموديا، حتى يبلغ الذروة التى يشاؤها له العلم. فهو يتدرج من الفرض العقلي، فالاستنتاج المبني على المنطق والجدل، فالرؤية، فالاختبار والتجربة. والحقيقة أن الجاحظ قد يكون قد سبق كثيرا من علماء العصر الحديث في مجال إجراء التجارب والاختبارات فيما يخص الحيوانات، فقد جرب على أصناف شتى من الحيوان كالضب والحيات والظليم (النعام) والخنفساء والسمك والعقارب والجرذ والنمل وجرب على النبات أيضا. وكان في كل تجربة من تجاربه الكثيرة يذهب مذهبا خاصا، فكان في بعضها يقطع طائفة من الأعضاء، وفي بعضها الآخر كان يلقى على الحيوانات ضربا من السم، وحينا كان يروم في تجربته إلى معرفة بيض الحيوان واستقصاء صفاته، وحينا كان يعزم على ذبح الحيوان وتفتيش جوفه وقانصته، ومرة كان يدفن الحيوان في بعض النبات ليعرف حركاته، وكان في أوقات يبعج بطن الحيوان ليعرف مقدار ولده، وفي أوقات يجمع أضداد الحيوان في إناء من قوارير ليعرف تقاتلها؛ وكان

يستخدم بعض المواد الكيماوية ليتعرف على مدى تأثيرها في الحيوان. ومما يؤيد هذا أن الجاحظ ـ مثلاً ـ رأى أن الناس تزعم أن الأفاعي تكره ريح السذاب والشيح فجرب ذلك بنفسه وقال: "أما أنا فإني قد ألقيت على رأسها وأنفها من السذاب ما غمرها فلم أجد على ما قالوا دليلاً"(١).

ويصف إناء من زجاج وضع فيه عشرين عقربا وعشرين فأرا ليرى ما فعلت العقارب بالفئران وبالعكس(٢).

ويقول بعض الباحثين المعاصرين عن تجارب الجاحظ: "قد نجد فيها صفة من صفات المجرب الحاذق، وأريد بهذه الصفة التطلع العلمي، فإن هذا التطلع قد يحمل العالم على الاهتمام بأمور لا يكون لها في نظر العامة معنى من المعانى، وقد نجد فيها شيئا من الصفات التى تستلزمها التجربة والتنزه من كل غرض وإنما ينقصها لوازم التجربة في عصرنا هذا؛ فمن هذه اللوازم تنويع التجربة وبسط آفاقها، ونقلها من شكل إلى شكل، وقلبها، وما شاكل ذلك.

---

(١) الجاحظ: الحيوان ج ٥ ص ٣٦٥ .

(٢) د. محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين، القاهرة ١٩٧٧، ص ٢٤٢ .

فلئن كان الجاحظ يجرب فما رأيناه في بعض تجاربه يذهب مذاهب مختلفة وصولاً إلى الحقائق، فما كان ينوع هذه التجارب أو يبسطها أو يخرج بها من صورة إلى صورة أو يقلبها من وجه إلى وجه، ولقد كان ينقصه شيء أعظم من هذا كله فيما أعتقد، فما كان يذهب من التجريب على أمور خاصة إلى استنباط القوانين العامة، وما كان يقابل بين أصناف الحيوان ويصنف ضروب هذا، والمقابلة والتصنيف ركنان من أركان التحقيق في علم الحيوان، وما رأيناه من بعض مقابلاته قد يكون كثيرا. على أن الجاحظ قد ظهر منذ أحد عشر قرنا وليس من العدل أن نكلفه أمورا لم تهتد إليها الفلسفة والعلم إلا من زمن غير بعيد"(١).

وكان الجاحظ يعتمد ـ في اختباراته وتجاربه ـ على نفسه أحيانا، وأحيانا أخرى على بعض أصدقائه من العلماء في إجراء مثل هذه التجارب والاختبارات العلمية على بعض الحيوانات ليستخلص منها بعض النتائج التى كان يتوخاها الجاحظ نفسه، كما نرى في الاتجاه العلمي الذى سار عليه في كتاب

(١) شفيق جبري: الجاحظ، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق ج ١١ ص ٥٥٧ ـ ٥٦٤.

الحيوان.

أما فيما يتصل بالروح النقدية التى كان يتمتع بها الجاحظ فإننا نستطيع القول بأن هذه الروح إنما تصدر عن نزعة عقلية واضحة، تميزت بها المعتزلة بصفة عامة والجاحظ بصفة خاصة. فالعقل عند الجاحظ يحتل مكانة بارزة، فهو الحاكم على الحس "ولعمري إن العيون لتخطئ، وإن الحواس لتكذب، وما الحكم القاطع إلا للذهن، وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل إذ كان زماما على الأعضاء، وعيارا على الحواس"(١).

ومن هنا نجد الجاحظ يرد بشدة على أي خبر لا يتفق والمنطق العلمي الذى كرس حياته من أجله، ولا يقبل أي فكرة إلا بعد تمحيص مهما يكن مصدرها.

ومن ثم تعرض للخرافات بالنقد ولم يقبلها وأنكر على أصحابها؛ من هذه الخرافات ما حدث بين المغيرة بن الفزر ومردويه كرداني عندما تضاربا فيما بينهما. يقول الجاحظ: "فأما ما ترويه

(١) الجاحظ: رسالة التربيع والتدوير، ص ١٩ .

رواة السوء من شأن المغيرة بن الفزر ومردويه كرداني بالأهواز، فهو من المحال الذى لا يخيل على ذى عقل. قالوا: التقيا فاختلفا ضربتين، فضرب المغيرة وسطه فمن حدته وجودته ومن شدة ضربته وقوته مر السيف في وسطه حتى نفذ من الجانب الآخر، والمضروب لم يشعر به، ثم قال المضروب للمغيرة: ما صنعت شيئا، قال المغيرة: فإن كنت صادقا فتحرك، فلما تحرك تباين نصفاه فسقط أحدهما عن يمين الفرس والآخر عن يساره. فهذا من أحاديث الخرافات، وليس يحتمل هذا الضرب من الأحاديث إلا من لا علم له"(١).

وهو ينقد المفسرين الذين نصبوا أنفسهم للعامة ليقولوا بغير رواية وعلى غير أساس، وكلما كان المفسر أغرب عندهم كان أحب إليهم" فكيف أثق بتفسيرهم، وأسكن إلى صوابهم، وقد قالوا في قوله عز وجل: ﴿وأن المساجد لله﴾: إن الله عز وجل لم يعن بهذا الكلام مساجدنا التى نصلى فيها، بل إنما عنى الجباه وكل ما سجد الناس عليه، من يد

(١) الجاحظ: البرصان والعرجان والحولان، ص ٢٤٤.

ورجل وجبهة وأنف"(١).

ومن انتقاداته الاجتماعية انتقاده لمن يستحمقون رعاة الغنم حيث يقول لهم: "فأما استحماق رعاة الغنم في الجملة، فكيف يكون ذلك صوابا وقد رعى الغنم عدة من جلة الأنبياء صلى الله عليهم"(٢).

ومن ذلك ــ أيضا ــ انتقاده انعزال مرة الهمذاني وصلاته في اليوم والليلة خمسمائة ركعة حتى لا يخوض في غمار ما يحدث في مجتمعه من فتن ومشكلات. يقول الجاحظ: "وأنا أسأل الله أن يغفر لمرة. على أنا لا نعرف لبعض ما قال وجها؛ لأنك لا تعرف فقيها من أهل الجماعة لا يستحل قتال الخوارج، كما أنا لا نعرف أحدا منهم لا يستحل قتال اللصوص. وهذا ابن عمر، وهو رئيس الحلسية، بزعمهم، قد لبس السلاح لقتال نجدة"(٣). ونجدة هذا هو نجدة بن عامر أحد الخوارج وإليه تنسب فرقة النجدات .

ومن انتقاداته الطبية ذلك الانتقاد الذى وجهه

---

(١) الجاحظ: الحيوان، ج ١ ص ٣٤٣ .

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ١ ص ٢٤٥ .

(٣) المصدر السابق ج ٣ ص ١٣٠ .

إلى جعفر بن يحيى عند ما رأى أن مرض "البرص" يكون نتيجة للعقوق، وهو متابع في ذلك لأطباء الهند. يقول الجاحظ: "قالوا: وهذا شيء أخذه جعفر بن يحيى عن أطباء الهند. وأطباء الهند تزعم أن العقوق يورث، البرص وهذه القصة مجانبة لسبيل الطب"(١).

أما نقد الجاحظ للذين يزعمون أخبارا عن بعض الحيوانات، والتى لا تمت بصلة للعلم، من قريب أو بعيد، فإنه لا ينتهى؛ فمن ذلك قوله: "والذين زعموا أن البغل إنما طال عمره لقلة السفاد، والعصفور قصر عمره لكثرة السفاد وغلمته ـ لو قالوا ذلك على جهة الظن والتقريب لم يلمهم أحد من العلماء. والأمور المقربة غير الأمور الموجبة"(٢).

ومع أن الجاحظ يقر لليونان بأن لهم فلسفة وصناعة منطق، وأن "أرسطو" عالم بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه وخصائصه، إلا أنه يرى أن أرسطو كان "بكي اللسان، غير موصوف بالبيان"(٣).

---

(١) الجاحظ: البرصان والعرجان، ص ٣٦ .

(٢) الجاحظ: الحيوان ج ٥ ص ٢٢٣ .

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ٣ ص ٢٧ .

وقد وجه الجاحظ كثيرا من الانتقادات لآراء أرسطو في الحيوان معبرا عن أرسطو بـ "صاحب المنطق"؛ وهو يناقش أرسطو في أحكامه مناقشة الند للند، ولم يتورع عن اتهامه بالجهل في أكثر من مكان، فمن ذلك رده على بعض ما قال أرسطو حين زعم أن أصنافا من السباع المتزوجات المتلاقحات مع اختلاف الجنس والصورة معروفة النتاج، مثل الذئاب التى تسفد الكلاب. يقول الجاحظ: "وقد سمعنا ما قاله صاحب المنطق من قبل وما يليق بمثله أن يخلد على نفسه في الكتب شهادات لا يحققها الامتحان ولا يعرف صدقها أشباهه من العلماء"(١).

وقد ذكر أرسطو أنه قد أبصر ثورا وثب بعد أن خصي، فنزا على بقرة فأحبلها. ويعقب الجاحظ على ذلك بقوله: "ولم يحك هذا عن معاينة، والصدور تضيق بالرد على أصحاب النظر، وتضيق بتصديق هذا الشكل"(٢).

---

(١) الجاحظ: الحيوان، ج ١ ص ١٨٥ .

(٢) المصدر السابق ج ٥ ص ٥٠٢ .

هذا فيما يتعلق بالقاعدة الثانية، أما القاعدة الثالثة فهي الشك المنهجي، والشك المنهجي ضرورة علمية حتى لا يسلم العالم بفكرة من حقها أن ترفض، أو أن يرفض فكرة من حقها أن تقبل. ومن هنا كان الشك عند الجاحظ سبيلا إلى اليقين، فهو لا يشك في الأمور لمجرد الشك وإنما يشك ليصل إلى يقين قاهر. وفي كثير من الأحوال وجد الجاحظ نفسه يتقبل بعض الأحكام من غير استنتاج ومن غير جدل، يتقبلها كأمور بديهية حتمية كوجود الخالق وقدرته، فموقفه منها موقف المسلم المؤمن. أما في غير هذه الموضوعات، فإن الجاحظ يلزم جانب الحذر، وكان يتأكد من صدق حامل الخبر قبل الخبر. وعندما لا يصدق خبرا أو يشك فيه فإنه يثبت ذلك مع استخدام ألفاظ مثل: زعم، ويزعم، ويزعمون، وقيل، وما أشبه ذلك. ولا يكتفي الجاحظ بإيراد الزعم، ولا سيما إن كان صادرا عن المشهورين من العلماء، بل يعمل على مناقشته وتفنيده، ويخرج منه باستدلالات يدحض بها كثيرا من الخرافات والأساطير، فهو نفسه يدعو ــ كما ذكرنا من قبل ــ إلى اعتماد العقل دون الحواس، لأن

الحواس خادعة. وقد أدرك الجاحظ أن الأساطير إذا مازجت العلم أفسدته وذهبت قيمته البحتة، لذا يقول: "وقالوا في الخلق المركب ضروبا من الحق والباطل، ومن الصدق والكذب، فمن الباطل زعمهم أن الشبوط ولد الزجر من البنى، وأن الشبوط لا يخلق من الشبوط، وأنه كالبغل في تركيبه وأنساله(١).

وإذا كان الجاحظ يشك شكا منهجيا ليصل إلى اليقين فإنه في الوقت نفسه يرفض الشك الذى لا يوصل إلى يقين وإنما هو شك لمجرد الشك، بل يرى الجاحظ أن هذا النوع من الشك متعب للإنسان ومحير له "وقد تعرف ما في الشك من الحيرة، وما في الحيرة من القلق، وما في القلق من النصب، وما في النصب من طول الفكرة، وما في طول الفكرة من الوحشة، وما في طول الوحشة من التعرض للوساوس والخفقة.. وما في نزاع النفس من الكد"(٢).

أما القاعدة الرابعة فهي النزاهة والموضوعية والإنصاف؛ ونلمس هذا من الجاحظ في أول

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٤٩ .

(٢) الجاحظ: التربيع والتدوير، ص ٣٩ .

كتابه الحيوان وفي كل أبواب الكتاب والكتب الأخرى وفي مختلف القضايا التى يعرض لها، ومما يدل على هذا قوله: "جنبك الله الشبهة، وعصمك من الحيرة، وجعل بينك وبين المعرفة نسبا، وبين الصدق سببا، وحبب إليك التثبت، وزين في عينك الانصاف، وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعر قلبك عز الحق، وأودع صدرك برد اليقين، وطرد عنك ذل اليأس، وعرفك ما في الباطل من الذلة وما في الجهل من القلة"(١).

من أجل هذا نجد الجاحظ يعتذر ـ أحيانا ـ عن أرسطو، بأن المترجمين لكتابه لم يحسنوا النقل، ولم يتوخوا الدقة والمطالبة. فهو يقول: "وَلعل المترجم قد أساء في الإخبار عنه"(٢). ويقول في موضع آخر: "فكيف أسكن بعد هذا إلى أخبار البحريين وأحاديث السماكين، وإلى ما في كتاب رجل ـ يعنى أرسطو ـ لعله إن وجد هذا المترجم أن يقيمه على المصطبة، ويبرأ إلى الناس من كذبه عليه،

---

(١) الجاحظ: الحيوان ج ١ ص ٣ .

(٢) المصدر السابق، ج ٢ ص ٥٢ .

ومن إفساد معانيه، بسوء ترجمته"(1).

وكان الجاحظ يتمتع بأمانة علمية بحيث إذا نسي شيئا أثبت ذلك إحقاقا للحق وعملا بالموضوعية والنزاهة، فقد نسي إسناد خطبة من الخطب فسجل هذا بقوله: "وخطبة أخرى ذهب عنى إسنادها"(2).

تلك هى أهم قواعد المنهج العلمي عند الجاحظ استنبطتها من كتبه الرئيسية التى بين أيدينا.

---

(1) المصدر السابق، ج ٦ ص ١٩ .

(2) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ٢ ص ١٢١ .

الفصل الثانى

جوانب الفلسفة الطبيعية عند الجاحظ

إذا كنا سنتحدث عن الفلسفة الطبيعية عند الجاحظ في هذا الفصل، فإن معنى هذا أن الجاحظ فيلسوف، فهل هو كذلك؟ الواقع أننا إذا عددنا الفلسفة نظاما فكريا متماسكا، محكم البناء والتصميم، فإننا لا نستطيع أن نعد الجاحظ فيلسوفا، لأنه لم ينسق أفكاره تنسيقا دقيقا شاملاً، على غرار ما نجده عند من يسمون بالفلاسفة من أمثال أرسطو أو ديكارت، بحيث يكوّن مذهبا منسقا متسقا خاصا به.

وأيضا لا نستطيع أن نعده فيلسوفا إذا فهمنا الفلسفة على أنها مجموعة الدراسات التى ترجع جميع المعارف البشرية إلى عدد محدد من المبادئ الأساسية وتسعى إلى تكوين نظرة شاملة عن العالم. فإننا لا نجد عند الجاحظ نظرة عامة شاملة أصيلة للعالم وتطور المجتمعات البشرية وليس عنده شيء مما ندعوه فلسفة العلوم أو فلسفة التاريخ أو فلسفة القانون على النحو الذى نراه عند ابن خلدون وكونت وهيجل وغيرهم.

غير أن الفلسفة اتخذت عند اليونان معنى المعرفة العقلية أو العلم بأوسع معانيه. حيث قسم أرسطو الفلسفة إلى قسمين: الفلسفة الأولى أو

الإلاهيات، والفلسفة الثانية أو الطبيعيات. و بهذا المعنى يمكن اعتبار ما كتبه الجاحظ أبحاثا فلسفية، لأنه عالج موضوعات ميتافيزقية وطبيعية متعددة: تكلم عن الله، خالق الكون ومنظمه من حيث وجوده وصفاته وإدراكه وعلاقته بالإنسان كما تحدث عن بعث الرسل ودورهم في إرشاد البشر ودلائل صدقهم، واهتم بالطبيعة فدرس ما فيها من كائنات مختلفة، جماد وحيوان وإنسان، فوجد فيها طبائع تسيرها ينبغي الاعتماد عليها لفهمها، كما وجد فيها من دقة الصنعة ما يدل على حكمة الله تعالى ووجوده. وبذلك يكون قد ربط ربطا محكما بين قسمي الفلسفة المذكورين آنفا.

كما أن الجاحظ قد عالج موضوع المعرفة معالجة جادة، إذ تطرق إلى طبيعتها ووسائلها ومعنى اليقين والشك والظن وحدود العلم البشري. وفي مجال الأخلاق جال جولات طيبة، فحاول أن يدرك الأسس التى تقوم عليها الأخلاق، بملاحظة دقيقة لسلوك الناس، وتحليل عميق لنفسياتهم؛ وفي مجال علم الجمال ترك أبحاثا واسعة تناولت مفهوم الجمال ومظاهره في المرأة والشعر والخطابة واللغة. وبهذا

ـ أيضا ـ ينطبق على الجاحظ المعنى الذى اتخذته الفلسفة في العصور الحديثة .

بيد أنه يمكن القول بأن اهتمام الجاحظ بموضوعات الفلسفة أوالكتابة فيها لا يكفيان لعده فيلسوفا، إذ لا بد من توافر شرطين هما: أن تكون تلك الكتابات ذات قيمة، وأن تكون ذات طابع عقلاني وآيلة إلى الآراء التى تبحثها الفلسفة والفلاسفة بشكل عام .

والحق أن الجاحظ تنطوى آثاره على قيمة فكرية ترجع إلى الشمول والأصالة. فلقد فكر في جميع المسائل التى تصادف الإنسان، وأصدر حولها العديد من الآراء المنهجية السديدة. فنظريته المعرفية مميزة انفرد بها عن سائر المتكلمين والفلاسفة، وقد أسهم في أبحاثه الجمالية بوضع أسس علم البيان في العربية، وقدم ملاحظات طريفة فيما يتصل بعلم نفس الحيوان وتأثير البيئة والتطور، وصاغ نظريته في الإمامة.

والطابع العقلي واضح القسمات في كتابات الجاحظ؛ فلقد كان معتزليا يحكم العقل فيما يبحث، ويخضع الأشياء والأمور للنقد، ويجعل الشك طريقا

إلى اليقين، ولا يروى غليله إلى الحقيقة سوى العيان والخبر الصادق الذى يثق العقل به. ويرفض الكثير مما لا يقبله عقله من أساطير وخرافات تتعلق بالإنسان أوالحيوان أو الظواهر الطبيعية.

وتأسيسا على ما تقدم يكون للجاحظ فلسفة، أى أن له اتجاهات فكرية تنطلق من ميدان الفلسفة لا من ميدان الأدب. ذلك أن الجاحظ لم يكن أديبا فقط، كما عرف عنه، وإنما كان مفكرا أيضا، حيث أطل على ميادين الفلسفة المختلفة من طبيعيات وغيرها.

غير أن الباحثين قد أهملوا الناحية الفلسفية عند الجاحظ واهتموا بالجانب الأدبي فقط اعتقادا منهم أنه أديب في الدرجة الأولى، حتى لنرى أحدهم يقول: "إن الجاحظ كان أولا وقبل كل شيء من الأدباء.. وأن تواليفه، حتى ما كان منها خاصا بالكلام، هي أدنى إلى الأدب منها إلى العلم(١). ثم يضيف في تأكيد هذا الرأي: "وصفوة القول أن الجاحظ كان قوي الملاحظة أكثر منه مفكرا، وأديبا

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية، ١٩٣٣، مجلد ٦ ص ٢٣٦ ـ ٢٣٨.

أكثر منه فيلسوفا، وعرف الجاحظ بالفطنة وسداد ملاحظاته في أغلب الأحيان، ومع ذلك فلا يمكن أن تسلك مؤلفاته إلا في كتب الأدبيات، أي كتب التهذيب وأدب التسلية والعلوم"(١).

وتابع هذا الواحد كثير من الباحثين المحدثين في دراساتهم، حيث انصبت هذه الدراسات على الناحية الأدبية وأهملت الناحية الفلسفية. وهذا عكس ما تنبه إليه القدامى، حيث فطنوا إلى الناحية الفلسفية عند الجاحظ.

لكن إذا كان الجاحظ فيلسوفا، فهل يمكن وصفه بالفيلسوف الطبيعي؟ الواقع أن الجاحظ قد اهتم بدراسة الطبيعة في مختلف ظواهرها من جماد ونبات وحيوان وإنسان. يظهر ذلك بوضوح في مؤلفاته المتعددة والمتنوعة، ككتاب الحيوان حيث يتحدث عن الجماد والحيوان، وكتاب الزرع والنخل والزيتون والأعناب حيث عرض لبعض النباتات، وكتاب العرب والموالي، وكتاب مفاخرة الجواري والغلمان، وفصل ما بين العداوة والحسد،

---

(١) المصدر السابق .

وغيرها حيث توسع في دراسة الإنسان .

غير أن دراسة الطبيعة وحدها لا تكفى لإضفاء صفة الفيلسوف الطبيعي على المفكر، إذ لا بد من وجود نزعة فكرية عنده تقوم على تفسير الظواهر المختلفة بالاستناد إلى الطبيعة. وهذا ما نجده واضحا في تفكير الجاحظ؛ فهو ينظر إلى الأشياء نظرة واقعية علمية، مؤمنا بوجود قوانين تسير بموجبها وتفسرها.

والجاحظ لم يعن بما يجرى في الطبيعة فحسب، وإنما عنى ـ أيضا ـ بالبحث عن علة أولى واحدة للكون بأسره. وهو بهذا يختلف عن فريق من الفلاسفة الطبيعيين أطلق عليهم اسم الدهريين، لم يقروا بوجود الخالق، ولذا تحدث عنهم الجاحظ وهاجمهم بعنف شديد(١).

كما خالف الجاحظ فيلسوفا طبيعيا كبيرا هو أبو بكر الرازي (٢٥١ ــ ٣١١هـ) الذى نفر من علم الكلام، واهتم بالطب، ووثق به، وقال بوجود مبادئ أربعة عدا الله ضرورية لوجود العالم هي

---

(١) الجاحظ: الحيوان ج ٧ ص ١٢ .

النفس الكلية والهيولي الأولى والمكان والزمان المطلق. أما الجاحظ فعلى النقيض، أحب علم الكلام، ورفض أي مبدأ قديم يساوق الله في قدمه(١).

وإذا أردنا أن نحدد مفهوم الطبيعة عند الجاحظ فإننا نجد أنه يستفاد من التعابير التى وردت فيها هذه الكلمة أن الطبيعة هي حالة الشيء الفطرية التى تشكل حقيقته أو خاصته المميزة كالتسخين بالنسبة للنار والتبريد بالنسبة للثلج، والإدراك بالنسبة للإنسان، ويشبّه الجاحظ الطبيعة بالعادة التى يكتسبها المرء بالمران والتكرار. ومن هنا تغدو الطبيعة والعادة توأمين في نتائجهما أو أثرهما في حياة الانسان(٢).

واستعمل الجاحظ الطبيعة بمعنى الاستعداد الفطري في الإنسان، أو ميله إلى عمل من الأعمال أو فن من الفنون، وهكذا قد يكون الرجل له طبيعة في التجارة وطبيعة في الكلام، وليس له طبيعة في

(١) أبو بكر الرازي: رسائل فلسفية، دار الآفاق، بيروت ١٩٧٧ ص ١٩٥.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين ج ٤ ص ٩٩ .

الفلاحـة(١). كمـا وردت كلمـة طبيعـة مرادفـة للطبـع وهـو السـجية التـى تولـد مـع صاحبهـا ولا تكتسـب اكتسابا(٢).

ولعل اهتمام الجاحظ بالطبيعة ووصفه لأفاعيلها هو الذى جعل واحدا مثل "دى بـور" يعده فيلسـوفا طبيعيـا، حيث يقـول: "كـان الجـاحظ فيلسـوفا طبيعيـا وأديبا ظريفا، وعنده أن العـالم الحق يجب أن يضـم إلى دراسة علم الكـلام دراسـة العلـم الطبيعـي وهـو يصف في كل شيء أفاعيل الطبيعة، ولكنه يشير إلى ما في هذه الأفاعيل من أثر خالق الكون(٣).

والحق أن إشارة الجاحظ إلـى مـا فـي أفـاعيل الطبيعـة مـن أثـر خـالق الكـون لا يضـير فلسـفته الطبيعيـة، ولا ينتقص مـن قيمتهـا، لأنـه نظـر إلـى الطبيعة نظرة موضوعية. فهي وإن كـانت فـي البـدء

---

(١) الجاحظ: الحيوان ج ٥ ص ١٠ ـ ١١ .

(٢) قارن أبا البركات البغدادي: المعتبر في الحكمة، حيدر آباد الدكـن، الطبعة الأولى ١٣٥٨هـ ج ٢ ص ٤ ـ ٥.

(٣) دى بور: تاريخ الفلسفة في الاسلام، ترجمة محمد عبد الهادى أبـو ريدة، القاهرة، ١٩٥٤ ص ٨٨ .

من صنع الله، إلا أنها في الوقت نفسه تسير بموجب قوانين محددة تسمح بدراستها دراسة علمية مستقلة؛ فالله سبحانه وتعالى هو واضع القوانين ومنها قانون السببية: "إن الفروع لا محالة راجعة إلى أصولها، والأعجاز لاحقة لصدورها، والموالي تبع لأوليائها، وأمور العالم ممزوجة بالمشاكلة، ومنفردة بالمضادة، وبعضها علة لبعض، كالغيث علة السحاب، والسحاب علة الماء والرطوبة، وكالحب علة الزرع والزرع علة الحب، والدجاجة علة البيضة والبيضة علتها الدجاجة، والانسان علة الانسان"(١).

كما أنه لا يقلل من أهمية فلسفة الجاحظ الطبيعية قول أحد المستشرقين: "إن الجاحظ كان عالما بالطبيعة والانسان، ولكنه لم يقصد في كتبه وضع قواعد هذين العلمين، إنما كان همه إثارة اهتمام القارئ بهما، وذلك بتحبيبهما إليه"(٢).

صحيح أن الجاحظ لم يضع كتابا يتناول أصول العلم الطبيعي وقواعده، ولكنه طبقها إلى حد ما في

---

(١) الجاحظ: كتاب القيان، ضمن رسائل الجاحظ ج ٢ ص ١٤٦.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، ج ٦ ص ٢٣٦ .

مؤلفاته وأوضح معالمها. ثم إنه لم يكن همه إثارة اهتمام القارئ بهذا العلم فحسب، بل كان يريد ـ شأنه في ذلك شأن كل عالم ومفكر ـ أن يقدم لبني جلدته آراءه ونتيجة أبحاثه ودراساته .

والواقع أن الجاحظ لم يكن أول من اهتم بالطبيعة، وإنما وجدت بذور هذه الفلسفة لدى اليونان، وعرض لها كثيرون من معاصرى الجاحظ من أمثال أبى الهذيل العلاف، والنظام، وثمامة بن أشرس، وبشر بن المعتمر، غير أن الجاحظ قد بلغ بها نهاية أبعد. ففى حين قال هؤلاء المتكلمون الاعتزاليون بالطبع ليبينوا أن أفعال الانسان من صنعه وليست من صنع الله، نجد الجاحظ يتخذ من الطبيعة غاية وليست وسيلة، فيجعلها موضوعا للدرس والتأمل في محاولة منه لسبر أغوارها واكتشاف قوانينها .

لقد قسم الجاحظ العالم قسمين كبيرين هما: الجماد والنامى(١)، وقسم النامى إلى نبات وحيوان، وأدخل الانسان في قسم الحيوان(٢). أما الجماد أو غير النامى كما يفضل تسميته فهو يرادف الموات غالبا .

---

(١) الجاحظ: الحيوان ج ١ ص ٢٦ .

(٢) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٧ .

وهو لا يوافق الفلاسفة في قولهم بالأفلاك. إنهم لا يسمونها جمادا أو مواتا، لاتصافها بالحركة التلقائية وتدبير الحياة على الأرض. وهو يشير بذلك إلى فلاسفة اليونان كأرسطو وأفلاطون ومن اقتفى أثرهم من فلاسفة الاسلام كالكندى معاصر الجاحظ الذين ذهبوا إلى أن الأفلاك تتمتع بالحياة والحركة وتؤثّر فى شئون الكائنات على سطح الأرض.

يرفض الجاحظ الأخذ بهذا الرأى ويقول إن الأفلاك والنجوم أجسام غير نامية، ويؤيد رأيه بحجج عديدة، منها أن حركة الأفلاك التلقائية لا تكفى لإخراجها من قسم الجمادات؛ ومنها أن جميع الناس لا يوافقون الحكماء على مذهبهم، بل إن معظم الأمم تخالفهم وتنكر عليهم اعتقادهم؛ ومنها أن هؤلاء الحكماء مقصرون في دراسة الجمادات .

ومن هنا نجد الجاحظ قد نجا من الوقوع في الخطأ الذى ارتكبه المفكرون اليونان والإسلاميون وهو الاعتقاد بأن الأفلاك السماوية تتدرج في سلسلة متواصلة ويتمتع كل منها بعقل ونفس، ويؤثر كل منها في الآخر، وهي بالتالى تؤثر في الأرض وما عليها من كائنات بحيث تستمد هذه الكائنات الأرضية

أسباب وجودها من تلك الأفلاك(١).

وخلاصة القول أن الفلسفة الطبيعية ترتكز عند الجاحظ على المبادئ التالية:

١ ـ العناية بدراسة ما في الطبيعة من ظواهر كثيرة شملت تقريبا جميع الكائنات من جمادات وأحياء .

٢ ـ اتخاذ آثار الأشياء أساسا للبحث، للاعتقاد بأن معرفة ماهيات الأشياء لا تتسنى إلا بمعرفة ما يصدر عنها من آثار.

٣ ـ أن الجاحظ اندفع إلى أبحاثه الطبيعية مسوقا بنزعته العلمية وإيمانه الدينى العميق.

٤ ـ أن الفلسفة الطبيعية عند الجاحظ ذات طابع خاص يميزها عن المذاهب الطبيعية التى عرفها تاريخ الفلسفة. إذ إن نظرة الجاحظ إلى الطبيعة تختلف عن نظرات فيثاغورس وديموقريطس وأرسطو قديما، كما تختلف عن نظرات داروين وسبنسر حديثا.

٥ ـ لا ينطبق على الجاحظ المعنى الحديث للفلسفة الطبيعية القائل بأنه لا يوجد شيء خارج

---

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٦ .

الطبيعة، أى الذى ينفى وجود القوى الميتافيزيقية.

فالجاحظ يقول بوجود خالق للطبيعة ما زال يرعاها وتتمثل فيها حكمته وهو الله تعالى. ولم يتصور الكائنات الطبيعية أعدادا كفيثاغورس، ولا مجموعة ذرات تتحرك دون غاية أو خالق كديموقريطس، ولم يقل إن الله لا يعلم بما يجرى فى الطبيعة كأرسطو، ولم يفهم التطور على أساس الانتخاب الطبيعي مثل دارون وسبنسر وغيرهما .



الفصل الثالث

الجماد (الموات)



أ ـ معنى الجماد:

الجماد عند الجاحظ هو كل ما ليس بنام. وهو يعترف بأن هذا التحديد غير كاف لأنه يعتمد على السلب، ويعزو ذلك إلى تقصير الحكماء في وضع أسماء للجمادات، ولهذا فهو ينتهي في تبيين معنى الجماد إلى حيث انتهو من غير إضافة شيء جديد.

"وكان حقيقة القول في الأجسام من هذه القسمة أن يقال: نام وغير نام. ولو كان الحكماء وضعوا لكل ما ليس بنام اسما كما وضعوا للنامي اسما لاتبعنا أثرهم، وإنما ننتهي إلى حيث انتهو"(١).

ويدل الجماد في الغالب على الموات؛ والموات هو كل ما يخلو من الحياة كالأرض، أما الماء والنار والهواء فإنها لا تسمى جمادا ولا مواتا ولا حيوانا، وإن كانت خالية من النماء والحس(٢). ولعل السبب في ذلك هو اعتبار الماء والتراب والنار والهواء عناصر تدخل في تركيب الأجسام وليست أجساما تدخل في التقسيم الذى يتحدث عنه الجاحظ.

---

(١) الجاحظ: الحيوان ج١ ص ٢٦ .

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٢٧ .

ويعترف الجاحظ بأنه لم يبتدع فكـرة العنـاصر هذه، فقد سبقه إليها حكمـاء الدهريـة، ويعنـى بهم فلاسفة اليونان. يقول الجاحظ: "ومنهم (أى من الدهرية) مـن زعـم أن هـذا العـالم مـن أربعـة أركـان: مـن أرض وهـواء ومـاء ونـار، وجعلـوا الحـر والـبرد والبلـة أعراضا فى هذه الجواهر"(١).

ب ـ الجزء الذى لا يتجزأ:

يتصل بالحديث عن الجماد وتركيـب الأجسـام عند الجاحظ الإشـارة إلـى نظريـة الجوهـر الفـرد أو الجزء الـذى لا يتجـزأ أو الـذرة؛ تلـك النظريـة التـى تنسـب إلـى ديموقريطـس الفيلسـوف اليونـاني. وهـذه النظرية تذهب إلـى أن الأجسـام تـتركب مـن أجـزاء متناهيــة فــي الصغــر لا يمكــن أن تتجــزأ. ويقــول "بيرتزل" إن المسلمين قد تلقـوا هـذه النظريـة عــن الغنوصيـة، عندمـا ترجمت المؤلفـات اليونانيـة إلـــى اللغة العربية في مطلع العصر العباسى(٢).

---

(١) المصدر السابق ج ٥ ص ٤٠، ج ١ ص ٢٧ .

(٢) س. بينيس وبيرتزل: مذهب الذرة عند المسلمين، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة، القاهرة ١٩٤٦ ص ١٤٠.

وأول قائل بمذهب الذرة — من المسلمين — هو أبو الهذيل العلاف من متكلمى المعتزلة(١).

وهذا المذهب جزء من صميم مذهب الأشاعرة، كما يقول "س. بينيس"، فإن المخلوقات عند الأشاعرة تنقسم إلى جواهر أفراد، سواء كانت أجساما أم أعراضا، أم مكانا أم زمانا. وكل حادث يقع في الزمان، فهو ينقسم إلى أجزاء منفصل بعضها عن بعض تمام الانفصال، ولا يربط بينها إلا إرادة الله عز وجل. والأعراض عندهم لا تبقى زمانين، أما الأجسام فهي تبقى بأن تخلق في كل وقت(٢).

وبالرغم من أن كلمة "ذرة" مذكورة فى القرآن الكريم إلا أن بعض الباحثين يرجعون استعمالها إلى تأثر المسلمين باليونانيين والهنود.

على أية حال، يعد القول بأن الأجسام تتألف من ذرات الفصل الأول من فصول المذهب المادى

---

(١) الأشعري: مقالات الإسلاميين، استانبول ١٩٣٠ ج ٢ ص ٣١٤.

(٢) بينيس وبيرتزل: مذهب الذرة عند المسلمين وعلاقته بمذاهب اليونان والهنود ص ٢ .

أو المذهب الآلى، عند بعض الباحثين، وإن كان القول به لا يحتم الإلحاد، بل يحتمل الاعتقاد بوجود خالق للطبيعة.

والحق أن القول بالذرة أوالجوهر الفرد يرجع ـ كما ذكرنا ـ إلى الفيلسوف اليونانى "ديموقريطس" الذى اعتبر الماء والتراب والنار والهواء فروعا للمادة البحتة المجردة من كل تعيين، الشبيهة بتلك التى نتصورها فى العلم الرياضى حين نفكر فى النقطة والخط والجسم، أى أنها امتداد فحسب، وارتأى أن هذا الامتداد مؤلف من أجزاء غاية في الصغر حتى إنها لا تدرك بالحواس، ولا تقسم إلى أصغر منها، تتحرك فى الفضاء وتتقابل على أنحاء شتى لا تحصى، فتأتلف في مجاميع هي الأجسام المنظورة الملموسة، وتفترق بفعل الحركة أيضا، فتنحل الأجسام ليتكون غيرها، واختلاف الأجسام فى خصائصها يرجع إلى اختلاف الذرات المؤلفة لها،

عددا وشكلاً ومقداراً وترتيبا، فالجسم الطبيعى فى هذا التصور مثله كمثل الآلة الصناعية، والمادة ههنا مكتفية بنفسها، مستغنية عن خالق يوجدها ويطبعها بقوانينها، بل عن صانع يصور مادة مستقلة عنه سابقة على تصويره الجزئيات وتنظيمها.

هذا هو أصل مذهب الذرة أو نظرية الجوهر الفرد الذى اصطنعه متكلمو الإسلام، ومن هنا نعته بعض الباحثين بأنه مذهب يؤدى إلى الإلحاد(١) بينما نعته بعضهم الآخر بأنه مذهب لا يحتم الإلحاد(٢).

غير أنى أرى أنه لا يمكن القول بأن هذا المذهب يحتم الإلحاد إلاّ إذا قلنا إن هذه الذرات هى التى تحرك نفسها، وتجتمع وتفترق من تلقاء نفسها، بالمصادفة، وأنها مكتفية بنفسها، ومسغنية عن خالق

---

(١) د. محمود قاسم: مقدمة تحقيق الكشف عن مناهج الأدلة لابن رشد ـ القاهرة ١٩٦٤، ص ١٢٠.

(٢) يوسف كرم: الطبيعة وما بعد الطبيعة، طبعة ثالثة ـ القاهرة، ص ١٢.

يوجهها، ويجمع شتاتها، ولا سيما أن العلم الحديث أثبت أن الذرات هي التى تكوّن الأجسام وأنها تتجزأ.

والحق أن هناك فروقاً دقيقة بين لب النظرية الذرية القديمة ونظرية علماء الكلام المسلمين، فالأولى منهما ذات طابع مادى على الإطلاق، إذ هى تجعل الأحداث الطبيعية متوقفة على تصادم الذرات وسبحها ودورانها فى دوامة مستمرة كالنبع الجياش فى وسط البحر مع خضوعها فى الوقت نفسه لقانون طبيعى لا يتخلف؛ أما عند المتكلمين فإن الذرات دليل على قدرة الله المطلقة الذى يدبر - فى كل حال - هذه الذرات وفق محض إرادته. يضاف إلى هذا أن عدد الذرات لا يتناهى عند فلاسفة الذرة من القدماء ومن تبعهم، كما كانت الذرات أكثر انفصالا بعضها عن بعض بوساطة الفراغ؛ أما عند متكلمى الإسلام فعدد الذرات متناه يضبطه الله سبحانه ويدبره، كما أنهم يتجنبون حتى الحديث عن الفراغ.

وزيادة على ما تقدم كانت الذرات فى نظر علماء الإغريق أجساما، جزيئات من المادة فى غاية الدقة، غير قابلة للانقسام إلى أصغر منها؛ أما عند متكلمى الإسلام فليست الذرات أجساما ولا أجراما. فالجسم عند العرب يتكون من عدد معلوم من الذرات(١).

يضاف إلى هذا ـ أيضاً ـ فرق أساسى بين مذهب الجوهر الفرد عند متكلمى الإسلام، ومذهب "ديموقريطس" هو أن هذا الأخير يرى أن للمادة كما للجواهر الأفراد التى تتألف منها المادة خصائص أساسية معينة تكون ماهيتها، وهى الصفات الأولية، بالاصطلاح الحديث؛ أما عند متكلمى الإسلام فإن الأعراض، باعتبار أنها جنس من الموجودات على حدة، تختلف عن الجواهر المجردة من جميع الصفات حتى الأولية منها، ويمكن أن تقوم

(١) ألدوميلى: العلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العالمى، الترجمة العربية، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٢٧٧، ٢٧٨.

الأعراض ـ عند المتكلمين ـ فى حل كل مشكلة شائكة مقام الصور والكيفيات عند الذين أخذوا بمذهب أرسطو فيما بعد(١).

هذا وقد ارتضى القول بالذرة أو نظرية الجوهر الفرد غالبية المتكلمين من الجبرية والمعتزلة، وجميع الأشاعرة والشهرستانى، ونفاه فلاسفة الإسلام والنظام والجاحظ وابن حزم(٢).

لقد أيدت الجبرية نظرية الجزء الذى لا يتجزأ بدافع كلامى وليس نتيجة لبحث فيزيقى. ذلك لأنهم وجدوا فيها سنداً لمذهبهم القائل أنه لا فاعل فى الطبيعة إلا الله، فإذا كانت الأجسام تتركب من أجزاء صغيرة لا تتجزأ فإنها تحتاج إلى قوة تربط فيما بينها باستمرار، وهى الله عز وجل، والله فى

---

(١) بينيس: مذهب الذرة عن المسلمين ص ٨ .

(٢) د. يحيى هويدى: محاضرات فى الفلسفة الإسلامية، القاهرة ١٩٦٦، ص ١٤٠.

رأيهم يخلق الأجسام ويفنيها باستمرار، بينما أيدها سائر المعتزلة أو غالبيتهم تفسيراً للآية الكريمة القائلة: ﴿وأحصى كل شيء عددا﴾.

أما النظام والجاحظ فقد أنكرا نظرية الجزء الذى لا يتجزأ، وقالا إن الأجسام يمكن أن تقسم إلى ما لا نهاية له من الأجزاء الصغيرة، وليس من جزء إلا وله أجزاء أصغر منه. ويظهر أنهما انساقا إلى هذه النظرية بدافع جدلى رياضى، أو لعلهما قد تأثرا ببعض الفلاسفة اليونانيين كالرواقيين الذين خالفوا "ديموقريطس"، وقالوا إن المادة تتجزء بالعقل إلى مالا نهاية. ولكنهما نقضا ركنا قويا استند إليه الجبرية فى تأييد عقيدتهم، ونصرا مذهبهما القائل بأن الله تعالى لا يتدخل فى الجزئيات، وأن أفاعيل الطبيعة تحدث تلقائيا بموجب قوانين الكمون والتولد وسواها، وأن أفعال الإنسان تنتج عن إرادته وليس هو مكرها عليها، وليس الله هو الذى يكرهه على

الإتيان بها.

لقد انتقد الجاحظ نظرية الجزء الذي لا يتجزأ، وقال إن أصحابها يقعون فى التناقض عندما يزعمون أن "أقل الأجسام الذى تركيبه من ثمانية أجزاء لا تتجزأ أو ستة أجزاء لا تتجزأ يستحيل جسما على طول العالم وعرضه وعمقه. فإنا لو وجدناه كذلك لم نجد بُدّا من أن نقول: إنا لو رفعنا من أوهامنا من ذلك شبرا من الجميع، فإذا كان مقدار ذلك الشبر جزءا واحدا فقد وجدناه جسما أقل من ثمانية أجزاء ومن ستة أجزاء. وهذا نقض الأصل، مع أن الشبر الذى رفعناه من أوهامنا فلابد إن كان جسما أن يكون من ستة أجزاء أو من ثمانية أجزاء. وهذا كله فاسد"(١). فيشير الجاحظ فى هذا النص إلى ادعاء أصحاب الجزء الذى لا يتجزأ أن جزئين يجتمعان

---

(١) الجاحظ: الحيوان جـ ٥ ص ٥٥.

فيؤلفان الطول، أما تأليف جسم ذى أبعاد ثلاثة: عرض وطول وعمق فيحتاج إلى ستة أجزاء أو ثمانية أجزاء لا تتجزأ(١).

ولقد تعرض النظام وأصحابه لنقد قوى من المعتزلة والجبرية على السواء بسبب قولهم بنفى الجزء الذى لا يتجزأ. فقد قال خصومه إن مذهبه مستحيل، لأنه إذا قلنا إن الجسم يتجزأ إلى ما لا نهاية فمعنى ذلك أنه يستحيل قطع أي مسافة من المسافات. فمثلا إذا قطعت نملة صغيرة صخرة تكون قد قطعت مالا نهاية له لأن هذه الصخرة تقبل القسمة إلى ما لا نهاية له، وهذا محال. غير أن النظام قد وجد مخرجا لهذه المشكلة بأن قال بالطفرة، أي أن النملة تتخطى بعض أجزاء الصخرة(٢).

ويورد الجاحظ مثلا آخر غير هذا المثل يوضح معنى الطفرة عند النظام. ففى معرض رده

---

(١) الأشعرى: مقالات الإسلاميين جـ: ١ ص ٦.

(٢) الشهرستانى: الملل والنحل جـ ١، ص ٥٥ _ ٥٦.

على منكرى الكمون يقول إن فى العود ناراً وبرداً. وعند الاحتراق ينجذب البرد إلى الماء وتظهر النار. ويرد خصومه قائلين: "لقد رأينا النار تخرج وتؤثر بينما لم نر للبرد أثرا". أجاب النظام بأن عودة البرد إلى الماء الذى هو أصله تم بالطفرة. ويشرح الجاحظ هذا المعنى بقوله: ".. ثم لم ينقطع ذلك البرد إلى برد الأرض الذى كالقرص له إلا بالطفرة والتخليف لا بالمرور على الأماكن والمحاذاة. وقام برد الماء منه مقام قرص الشمس من الضياء الذى يدخل البيت للخرق الذى يكون فيه، فإذا سد فمع السد ينقطع إلى قرصه وأصل جوهره"(١).

إن النظام هو الذى ابتدع نظرية الطفرة، أما نظرية الجزء الذى لا يتجزأ أبدا فلم يبتدعها وإنما هى مأخوذة عن فلاسفة اليونان. يقول الشهرستانى: "إن النظام وافق الفلاسفة فى نفى الجزء الذى لا

(١) الجاحظ: الحيوان جـ ٥، ص ١٩ ـ ٢٠.

يتجزأ وأحدث القول بالطفرة"(١). ولكنه لم يصرح بأسماء هؤلاء الفلاسفة، ولعله يقصد بهم الفلاسفة اليونان الذين عارضوا "ديموقريطس" ونظريته في الذرة، ومنهم الرواقيون وزينون الإيلى القائلون بأن المادة يمكن تجزئتها إلى مالا نهاية، ومنهم أفلاطون وأرسطو وأنبادوقليس وغيرهم الذين ذهبوا إلى أن الأجسام تتكون من أربعة أركان هى النار والهواء والماء والتراب. وينسب الجاحظ إلى النظام أقوالا تؤيد هذا الرأي كقوله: "إن الغالب على العالم السفلى الأرض والماء، والغالب على العالم العلوى النار والهواء"(٢). وكقوله: "إن الحطب عند انحلال أجزائه وتفرق أركانه التى بنى عليها ومجموعاته التى ركب منها وهى أربع: نار ودخان وماء ورماد .."(٣).

ويزعم المستشرق "بريتزل" أن البحث فى الجزء الذى لا يتجزأ " حدث أول ما حدث عندما

---

(١) الشهرستانى: الملل والنحل جـ ١، ص ٥٥ .

(٢) الجاحظ: الحيوان جـ ٥، ص ١٩.

(٣) المصدر السابق جـ ٥، ص ١١.

ذهب النظام إلى أن الجسم يقبل الانقسام إلى غير نهاية"(١).

والحق أن النظام ليس أول قائل بمذهب الجوهر الفرد إنما أبو هذيل العلاف هو أول قائل به كما قلنا سابقا.

هذا وقد أشار الجاحظ إلى أن مصطلح الجوهر الفرد أو الجزء الذى لا يتجزأ كان شائعا بين المثقفين حتى إننا نجده قد ورد عند بعض الشعراء كأبى نواس الذى يقول:

يا عامد القلب منى هلا تذكرت حلا
تركت منّى قليلا من القليل أقلا
يكاد لا يتجزأ أقل فى اللفظ من لا(٢).

كما أننا نجد الجاحظ يستعمل مصطلح الجزء الذى لا يتجزأ فى مجال التندر والسخرية على لسان

(١) بينيس: مذهب الذرة عند المسلمين، ص ١٤.
(٢) الجاحظ: البيان والتبيين جـ ١ ص ٩٨.

أحد المتندرين حيث يقول: "قال (أبو كعب): وأتانا (موسى بن جناح) بأرزة، ولوشاء إنسان أن يعد حبها لعده، لتفرقه وقلته. قال: فنثروا عليها لبكة من دبس مقدار نصف أسيكرة، فوقعت ليلتذ فى فمى قطعة — وكنت إلى جنبه — فسمع صوتها حين مضغها، فضرب يده على جنبى ثم قال: أجرش يا أبا كعب أجرش. قلت: ويلك، أما تتقى الله! كيف أجرش جزءا لا يتجزأ"(١).

الواقع أن هذا الخبر الطريف يدل على تهكم الجاحظ وسخريته من نظرية الجزء الذى لا يتجزأ، كما يدل على انتشار هذا المصطلح بين فئات المجتمع. ويبدو هذا التهكم مرة أخرى عند الجاحظ فى رسالة التربيع والتدوير حيث يقول مخاطبا أحمد ابن عبد الوهاب الذى يسخر منه: "فلا تزاحم البحار بالجداول، والأجسام بالأمراض، وما لا يتناهى

(١) الجاحظ: البخلاء ص ١٢٨.

بالجزء الذى لا يتجزأ"(١).

ولكن إذا كان الجسم يتركب من عدة عناصر أو أركان حسب بعض الآراء، أو من أجزاء لا تتجزأ حسب بعض الآراء الأخرى، فما العلاقة بين هذه العناصر أو الأجزاء داخل الجسم؟ الواقع أن أصحاب المذهب الأول يقولون إن هذه العناصر التى تكون الجسم توجد متداخلة فيما بينها، وهذا ما يسمى بنظرية المداخلة، بينما يقول أصحاب المذهب الذى أن الأجزاء توجد داخل الجسم متجاورة، وهذا ما يسمى بنظرية المجاورة.

إن الجاحظ يشير إلى هذين المذهبين وهو يتكلم عن النار وكمونها فى الأجسام فيقول: " .. نبدأ بالأخبار عنها وبدئها (النار) وعن نفس جوهرها، وكيف القول فى كمونها وظهورها .. وعن كونها

---

(١) الجاحظ: رسالة التربيع والتدوير ص ٧٢.

على المجاورة كان ذلك أم على المداخلة.."(١).

ويذهب الجاحظ إلى أن النار متداخلة في العود مع الماء والهواء والرماد، وليست متجمعة في قسم فيه بحيث تحتل طرفا منه، بينما يحتل الماء الطرف الآخر مثلا، وينحصر الهواء في الوسط، وإنما النار في جميع العود كامنة فيه وسائحة وهي أحد أخلاطه "والجزء الذى يرى منها في الطرف الأول غير الجزء الذى في الوسط، والجزء الذى في الوسط غير الجزء الذى في الطرف الآخر .."(٢).

هذا هو مذهب الجاحظ وأستاذه النظام، أما أصحاب الأعراض والجبرية والذريون فيرفضون نظرية المداخلة ويقولون إن "النار التى تراها أكثر من الحطب إنما هى ذلك الهواء المستحيل، وليس أنها إذا عدمت فقد انقطعت إلى شكل لها علوى

---

(١) الجاحظ: الحيوان جـ ٥ ص ٥.

(٢) الجاحظ: الحيوان جـ ٥ ص ٨١ ـ ٨٢.

واتصلت إلى تلادها، ولا أن أجزاءها أيضا تفرقت فى الهواء، ولا أنها كانت كامنة فى الحطب ومتداخلة فيه، فلما ظهرت انبسطت وانتشرت، وإنما اللهب هواء استحال نارا، لأن الهواء قريب القرابة من النار والماء هو حجاز بينهما"(١). وهكذا يشغل الهواء والنار والماء والرماد أماكن مستقلة فى الحطب، وهى تتجاور دون أن تتداخل. فالنار تحتل حيزا منه والهواء يحتل قسما آخر والماء يحجز بينهما.

هذا، ويلاحظ "بيرتزل" أن المتكلمين الذريين لم يهتدوا إلى القول بالخلاء، ويرجع السبب فى ذلك إلى أنهم لم يقصدوا إلى دراسة الطبيعة فى حد ذاتها. يقول "بيرتزل": "وكذلك لا نجد ذكرا لما يتصل بفكرة الجوهر الفرد بحكم الضرورة العقلية من القول بوجود الخلاء، وذلك رغم أن ما بحثه المتكلمون من

---

(١) المصدر السابق جـ ٥ ص ١٥ ـ ١٦.

مسألة المماسة والمجاورة والتداخل بين الجواهر، كما نجد ذلك فى المقالات (يقصد مقالات الإسلاميين للأشعرى)، كان يجب أن يؤدى مباشرة إلى فكرة الخلاء .."(١).

جـ - الجوهر والعرض:

الجوهر والعرض مقولتان يونانيتان نجدهما فى الفلسفة اليونانية وبخاصة لدى أرسطو، ومنها انتقلنا إلى الفلسفة الإسلامية إثر حركة الترجمة التى أدت إلى وضع التراث اليونانى فى متناول أيدى المسلمين.

لقد استعمل الجاحظ "الجوهر" بمعنى المعدن حيث يقول: "الفلز: جوهر الأرض من الذهب والفضة والنحاس والآنك وغير ذلك"(٢).

كما استعمل الجاحظ كلمة "الجوهر" بمعنى

(١) بينيس: مذهب الذرة عند المسلمين ص ١٤١ .

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين جـ١ ص٣١ والحيوان جـ١ ص٦ .

الجسم حيث يقول: "الماء هـو الجوهـر القـابل لجميـع القوى"(١). واستعمله أيضا بمعنى "الجنس" فى قولـه: "والجنس عين الجوهر وذاته"(٢).

وكما نعلم فإن أرسطو قد ميّز بين نوعين مـن الجواهر همـا: الجوهـر الأول أو الأعيـان المفـردة، والجوهـر الثـانى أو النـوع والجنـس "فـالجوهر الموصوف بأنه أول بالتحقيق والتقديم والتفضيل فهـو الذى لا يقال على موضوع ما ولا هو فـى موضـوع مـا، ومثـال ذلـك فيهـا إنسـان مـا وفـرس مـا. فأمـا الموصوفة بأنها جواهر ثوان فهى الأنواع التى توجـد فيها الجواهر الموصوفة بأنها أولى، ومع هذه الأنواع وهذه الأجناس أيضا.."(٣).

أمـا العـرض فهـو خـلاف الجوهـر، وكـان موضع خلاف شديد بين مفكرى الإسلام. ويفهـم مـن

---

(١) الجاحظ: الحيوان جـ ٥ ص ٨٩.

(٢) المصدر السابق جـ٤ ص ٣١٩.

(٣) أرسطو: المنطق، تحقيق عبد الرحمن بدوى، القاهرة ١٩٤٨ جـ١ ص٧.

كلام الجاحظ المنسوب إلى النظام أن كل ما يرى ويشم ويلمس ويذاق جسم وبالتالى هو جوهر وأنه لا يوجد عرض سوى الحركة(١).

وعلى سبيل المثال يعد النظام النار التى فى الحطب والزيت الذى فى السمسم والزيتون جوهرين، وكذلك الحلاوة والمرارة والصفرة والحمرة والخضرة، وباختصار جميع الطعوم والروائح والألوان. ثم نراه ينتقد أصحاب الأعراض الذين يقولون إن المرارة والحلاوة عرضان، بينما الزيت والخل جوهران، ونسمعه يقول كما يروى الجاحظ عنه: "وإن زعم الزاعم أن الحلاوة والمرارة عرضان، والزيت والخل جوهران، وإذا الزم من قال ذلك فى حلاوة العسل وحموضة الخل وهما طعمان، لزمه مثل ذلك فى ألوانهما، فيزعم أن سواد السبج وبياض الثلج وحمرة العصفر، وصفرة الذهب

---

(١) الأشعرى: مقالات الإسلاميين ج٢ ص ٣٨.

وخضرة البقل إنما تحدث عند رؤية الإنسان، وإن كانت المعاينة والمقابلة غير عاملتين فى تلك الجواهر. فإذا قاس ذلك المتكلم فى لون الجسم بعد طعمه، وفى طوله وعرضه وصورته بعد رائحته، وفى خفته وثقل وزنه كما قاس فى رخاوته وصلابته، فقد دخل فى باب الجهالات، وزعم أن القربة ليس فيها ماء، وأن وجودها باللمس ثقيلة مركوزة، وإنما تخلق عند حل رباطها"(١).

وينتقد "النظام" "أرسطو" لقوله بالأعراض إلى جانب الجواهر. إن أرسطو الذى يزعم أن الماء الممازج للأرض لم ينقلب أرضا، وأن النار الممازجة للماء لم تنقلب ماء، وكذلك ما كان من الماء فى الحجر ومن النار فى الأرض والهواء .. لم يصل إلى أن يزعم أن فى الأرض عرضا يحدث وبالأحرى أن يعجز عن تثبيت كون الماء والأرض

---

(١) الجاحظ: الحيوان جـ٥ ص ٨ ـ ٩.

والنار عرضا(١).

كما يشير الجاحظ إلى فئة من المتكلمين يسميهم أصحاب الأعراض، منهم ضرار بن عمرو وجهم بن صفوان. وإنما سموا بهذا الاسم لأنهم يقولون إنه لا يوجد فى الأصل سوى أعراض، وأن الأجسام تتركب من الأعراض، إنهم بذلك يخالفون النظام وأصحابه الذين قالوا بالعكس أنه لا يوجد سوى أجسام أو جواهر، ولم يعترفوا إلا بعرض واحد هو الحركة(٢).

ويظهر أن الجاحظ لا يوافق النظام ولا أصحاب الأعراض. وإنما يقول بوجود الأجسام والأعراض. والعرض عنده هو كل ما ليس بجوهر، ولا يقوم بنفسه وإنما فى الجوهر أو الجسم. والعرض من عمل الجسم، أما الجسم فلا يكون إلا من

---

(١) الجاحظ: الحيوان جـ٥، ص ٥٣.

(٢) المصدر السابق جـ٥ ص ١٠ ـ ١١.

جسم أو من مخترع ومبدع الأجسام وهو الله تعالى(١).

هذه هى القضايا التى أثارها الجاحظ فيما يتعلق بالجماد، أما فيما يتعلق بالنبات فإننا نجد أن الجاحظ لم يتوسع فى دراسته كما توسع فى الحديث عن الجماد والحيوان والإنسان؛ فلا نجد عنده ـ فيما يتعلق بالنبات ـ إلا حديثا عابرا عن تصنيف النبات، حيث يقول: "ويقال إن جميع نبات الأرض على ثلاثة أصناف: نجم وشجر ويقطين، فما كان قائما على ساق فهو نجم، وما كان منفرجا ذا أغصان ومتشعبا بأفنان فهو يقطين، وفى القرآن: ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾(٢).

والمعروف عند علماء النبات أن النجم ما ليس قائما على ساق، وأن الشجر هو ما قام على ساق، أما اليقطين فهو ما له ساق ولكنه لا يقوم عليها نحو الدباء والقرع والبطيخ.

---

(١) الجاحظ: آثار الجاحظ، تحقيق عمر أبو النصر، بيروت ١٩٦٩ ص ٢٧٢.

(٢) الجاحظ: البرصان والعرجان .. ص ١٨٠.

والآن نبدأ فى الحديث عن الحيوان حيث إن الجاحظ يقسم الكائنات إلى جماد ونام، والنامى إلى نبات وحيوان. وحيث أننا نجد الجاحظ قد توسع فى الحيوان ولم يتوسع فى النبات فقد اكتفينا هنا بهذه الإشارة التى أوردناها، وبعدها ننتقل إلى الحديث عن الحيوان، وهو حديث مفصل.



الفصل الرابع

الحيـوان



أ ـ مصادر ثقافة الجاحظ فى علم الحيوان:

يتركز كلام الجاحظ عن الحيوان فى كتابه "الحيوان"؛ هذا الكتاب الضخم الذى يعد موسوعة علمية شاملة تناول فيها الجاحظ المعارف الطبيعية، والمسائل الفلسفية، وسياسة الأفراد الأقوام، ونزاع أهل الكلام وسائر الفرق والطوائف الدينية والمسائل الجغرافية مما يتعلق بخصائص البلدان وتأثير البيئة فى الحيوان والإنسان والأشجار، والأجناس البشرية وتباينها، وبعض قضايا التاريخ، والطب والأمراض التى تعترى الإنسان والحيوان، وكثيرا من المفردات الطبية، سواء كانت نباتية أو حيوانية أو معدنية، ومسائل الفقه والدين، وما يبعلق بذلك من آيات الكتاب الحكيم وحديث سيد المرسلين.

فمن أين استقى الجاحظ معارفه فى علم الحيوان؟ وهل كان مبدعا لهذا العلم أم كان فى جانب منه مبدعا وفى الآخر متبعا؟

الواقع أن هناك جهودا سابقة على الجاحظ فى دراسة الحيوان، ولعل اليونان وجهودهم فى هذا الحقل العلمي كانت أسبق من الجاحظ حيث إنهم كانوا أصحاب دراسات واسعة فى هذا المجال وألفوا كتبا خاصة بالحيوان "منها كتاب الحيوان لديمقراطيس ذكر فيه طبائعه ومنافعه، وكتاب الحيوان لأرسطاطاليس، تسع عشرة مقالة .. ولأرسطو أيضا كتاب فى نعت الحيوان الغير الناطق"(١).

وإن كان البابليون والمصريون قد سبقوا اليونانين فى هذا العلم، إلا أن أرسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق. م.) يعد أول عالم قام بمجهود يذكر فى علوم الحياة والفلسفة والسياسة وغيرها من العلوم الأخرى. ومن خلال دراسة آثاره نعرف أنه قد استخدم التجربة والاستنتاج دليلا حقيقيا للمواضيع التى مارسها.

ومن دراسة آرائه يظهر أنه كان على قدر من المعرفة لا يستهان به فى علم التشريح ووظائف

---

(١) حاجى خليفة: كشف الظنون جـ١ ص ٤٥٦.

الأعضاء وتكوين الأجنة، وتاريخ حياة كثير من الحيوانات التى عرف نحو خمسين ومائتى نوع منها فى بيئته، متتبعا غذاءها وتكاثرها وتركيبها.

وإذا تصفحنا كتب الجاحظ يظهر لنا أثر أرسطو فى كثير من فكر الجاحظ وأسلوبه، وقد ذكر الجاحظ أرسطو فى كثير من المواضع ونوه بذكره، معتمدا عليه، أو ناقدا إياه.

على أية حال يظهر لنا من خلال قراءة كتاب الحيوان أن هناك مصادر متعددة، وينابيع مختلفة استقى الجاحظ منها معارفه فى علم الحيوان هي:

أولا: القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف. وقد استخدم الجاحظ هذا المصدر للتدليل على قيمة الحيوان والحشرة، مهما صغر جرمها، وكذلك للتدليل على أن الحيوانات تحشر يوم القيامة، ولاستخراج الفتاوى التى تتعلق بالحيوانات والحشرات أيضا.

ثانيا: الأخبار العربية والشعر العربى والأمثال.

فالشعر العربى، وبخاصة البدوى منه، قد تحدث عن الحيوان حديثا طويلا، تحدث عن الأنيس منه، ولم يهمل الوحشىّ، بل أشرك بين هذا وذاك. ومعرفة الأعراب للحيوان جيدة ويذكر الجاحظ السبب فى ذلك قائلا: "وربما، بل كثيرا ما يبتلون بالناب والمخلب، واللدغ واللسع، والعض والأكل؛ فخرجت بهم الحال إلى تعرف الجافى والجارح والقاتل، وحال المجنى عليه، والمَجروح والمقتول،.. وكيف الداء والدواء، لطول الحاجة، ولطول وقوع البصر، مع ما يتوارثونه من المعرفة بالداء والدواء"(١). ثم يبين الجاحظ سبب اعتماده على الشعر العربى فيقول: "وقل معنى سمعناه فى باب معرفة الحيوان من الفلاسفة، وقرأناه فى كتب الأطباء والمتكلمين إلا

---

(١) الجاحظ: الحيوان جـ ٦ ص ٢٩.

ونحن قد وجدناه أو قريباً منه فى أشعار العرب"(١)..
التى كان عليها أكثر اعتماده.

ثالثا: الخبرة الشخصية والثقافة التى تلقاها الجاحظ من مجتمعه، وذلك الولوع الذى كان يدفعه إلى السؤال ممن يتوسم فيه العلم، وكان الجاحظ بطبعه شعبيا، مع أنه كان مقربا نافذ الكلمة عند الوزراء والخلفاء، فهو قد جالس الملاحين مرارا، وسمع من أحاديثهم، وكذلك صائدى العصافير وأصحاب الطيور والحوائين والفيالين وغيرهم. وكان الجاحظ صاحب تجربة شخصية، فكان إذا سمع بشيء وساوره الشك فى صحته يقوم بالتجربة بنفسه، كتجربة السم لبعض الحيوان أو الأدوية وغيرها.

رابعا: كتب الفرس والهنود؛ إلا أن آراء الهنود أكثرها يتعلق بالخيال، أما كتب الفرس فتتعلق بالثنوية وأكثرها آراء زرادشت، والجاحظ يفند هذه الآراء دائما.

---

(١) المصدر السابق جـ٣ ص ٢٦٨.

خامسا: تلك العقلية الحجاجية التي ولدها العقل المعتزلي متأثرا بعلم الكلام. وهذه الحجاجات الكلامية مبثوثة في الكتاب، وقد خصص الجاحظ الجزء الأول والثاني منه لهذا الحجاج، فنرى هناك قوله: "وقال صاحب الديك" و"قال صاحب الكلب" و"قال صاحب النعامة". ويذكر الجاحظ في هذا الجدال محاسن كل حيوان ومساوئه، ومعلومات كثيرة عنه، وبلا شك ليس هناك اثنان متجادلان، فهو من كلام الجاحظ، ليدل بذلك على قدرته الكلامية وسعة علمه، فهو يقول في ذم الديك ومدح الكلب: "والديك لا يألف منزله ولا ربعه، ولا ينازع إلى دجاجته ولا طروقته، وهو مع ذلك أبله لا يعرف أهل داره، ومبهوت لا يعرف وجه صاحبه.. والكلب على ما فيه يعرف وجه صاحبه..(١)" ويقول على لسان صاحب الديك يذم الكلب: "فهو سراق،

(١) المصدر السابق جـ٢ ص ١٩٥ ـ ١٩٦.

وصاحب بيات، وهو نباش، وآكل لحوم الناس(١)"
ولعل الجاحظ كان يرمز بهذا النزاع وأمثاله إلى أقوام وطوائف بعينها، وبخاصة أن الجاحظ له باع طويل في الحديث عن الشعوبية.

سادساً: كتاب الحيوان لأرسطو؛ وقد نقل الجاحظ عن أرسطو نصوصا ليست من الكثرة بمكان، إذا قيست بما أخذه من العرب وأشعارهم وأخبارهم. غير أنه من الجدير بالذكر القول بأن الجاحظ قد سلك مع آرسطو مسلك الرأى المعتزلي الحرّ، فما قبله عقل الجاحظ أيده بالأدلة، وما لم يقبله عقله رده.

والجاحظ بهذا لا يقبل الأمور بعلاتها، فهو في بعض الأحيان يعتذر عن أرسطو لأنه ربما يكون المترجمون قد أخطأوا في النقل، أو أنهم لم يتوخوا الدقة في ترجمتهم" ولعل المترجم قد أساء في الإخبار عنه"(٢).

---

(١) المصدر السابق جـ٢ ص ١٩٣ ـ ١٩٤.
(٢) المصدر السابق جـ٤ ص ٣٤.

ويجدر بنا أن نقف فى هذا الفصل وقفة متأنية لنقارن بين أرسطو والجاحظ حتى نثبت أصالة الجاحظ فى دراسته عن الحيوان.

ب ـ السبب فى تأليف الجاحظ للحيوان:

يعد كتاب "الحيوان" أضخم كتب الجاحظ، حيث يقع فى سبعة أجزاء تزيد صفحاتها على ثلاثة آلاف صفحة، وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على اهتمام الجاحظ بالحيوان اهتماما بالغا، فما الذى حمله على تأليف هذا الكتاب الضخم، وعلى تحمل الجهد الذى بذله فى سبيل تصنيفه؟ لقد أشار الجاحظ مراراً فى ثنايا حديثه عن الحيوانات إلى أن حكمة الله تتجلى فى تكوينها وتشكل دليلا قويا على قدرة الخالق سبحانه وعجيب إبداعه(١). غير أن توضيح مثل هذه الفكرة لا يحتاج إلى تأليف كتاب بهذه الضخامة، ولاسيما أن الجاحظ قد وضع مؤلفا حول هذا الموضوع عنوانه " الدلائل والاعتبار على الخلق

---

(١) الجاحظ: الحيوان، جـ ٧ ، ص ٩ .

والتدبير" ألمّ فيه بمختلف جوانب الموضوع وذكر مختلف الأدلة على وجود الله تعالى وتدبيره فى خلقه، فلا حاجة إلى تأليف كتاب آخر حول الموضوع نفسه. ومن ناحية أخرى فإننا نجد الجاحظ يعلن أن كتابه هذا ليس بحثا فى الفلسفة والمذاهب الكلامية، ولذلك لن يثير سخط فرقة أو رضى فرقة أخرى، لأنه لا يتناول "إيجاب الوعد والوعيد فيعترض عليه المرجىء، ولا تفضيل علي فينصب له العثمانى، ولا هو فى تصويب الحكمين فيتسخطه الخارجى، ولا هو فى تقديم الاستطاعة فيعارضه من يخالف التقديم ولا هو فى تثبيت الأعراض فيخالفه صاحب الأجسام(١)".

الواقع أننا نلاحظ من استعراض الكتب التى صنفها أساتذة الجاحظ ومعاصروه أن الحيوان كان الموضوع الأكثر جاذبية لأقلام المصنفين والعلماء فتناوله كل منهم بالبحث وصنف فيه كتابا أو أكثر. ومن الطبيعى أن يتأثر الجاحظ بذلك الواقع فاتجه إلى

(١) المصدر السابق، جـ٧، ص ٧.

معالجة هذا الموضوع الذى حظى باهتمام أبناء عصره من العلماء.

وهناك افتراض يرد على الذهن وهو أن يكون الجاحظ قد أقدم على تأليف هذا الكتاب معارضة لكتاب أرسطو فى الحيوان. ومن المؤكد أن الجاحظ قد اطلع على ذلك الكتاب الذى نقله إلى العربية ابن البطريق(٢٠٠هـ) ويضم تسع عشرة مقالة(١). ويؤيد هذا الافتراض كثرة رجوع الجاحظ إلى أرسطو، فقد ذكره مرات عديدة وأورد آراءه بصدد مسائل شتى، معبرا عنه بصاحب المنطق، وبذلك يعد أرسطو من أهم مصادره، بالإضافة إلى المصادر الأخرى التى ذكرناها سابقا. غير أن الجاحظ لم يرض بأن يكون مقلدا لأرسطو أو ناقلا عنه، وإنما أراد أن يكون له ندا ومنافسا يباريه فى هذا الميدان ويجدّ فى أن يسبقه ويتفوق عليه، لهذا

---

(١) لم يرجع الجاحظ إلى كتاب " جوامع كتاب أرسطاطا ليس فى معرفة طبائع الحيوان" لثامسطيوس، ترجمة إسحق بن حنين، لأنه لم يذكره. انظر: عبد الرحمن بدوى: شروح على أرسطو مفقودة فى اليونانية ورسائل أخرى (دار المشرق ـ بيروت، ط١، ١٩٧٢م).

نراه ينتقده ويخالفه فى كثير من المسائل، وفى المنهج وفى الغاية.

ويجدر بنا قبل أن نقارن بين كتابى أرسطو والجاحظ أن نأتى بوصف لبعض الحيوانات ذكرها كل منهما حتى نبين مدى تأثر الجاحظ بأرسطو واطلاعه على كتابه.

جـ ـ وصف بعض الحيوانات بين أرسطو والجاحظ:

وسنقارن هنا بين بعض أنواع الحيوانات التى ذكرها أرسطو كما جاءت فى كتابه" طباع الحيوان" وترجمه العالم العربى" ابن البطريق" والتى ذكرها أيضا أبو عثمان الجاحظ، فى كتابه الحيوان، وندع للقارئ المعاصر أن يقف ليتأمل ما جاء به علم الحيوان الحديث، وأى الأقوال كانت أقرب إلى الواقع والحقيقة العلمية فيما بين هذين العالمين: الاغريقى والإسلامى.

١ ـ النمل:

أ ـ قول أرسطو فيه:

"وسائر أجناس النمل كثير النمل كثير العمل والمكسب أكثر من جميع أصناف الحيوان المحزز

الجسد وأيضا الدبر الكبير والصغير وجميع الأجناس الملائمة لهذه الذكورة. وعمل النمل ظاهر بين، إذ إن جميع النمل أبدا يسير فى مسلك واحد، وأنه يكنز طعامه وإذا كانت ليال مقمرة يعمل أيضا"(١).

ب ـ قول الجاحظ:

"وقد علمنا أن الذرة (أى النمل) تدخر للشتاء فى الصيف، وتتقدم فى حال المهلة ولا تضيع أوقات إمكان الحزم. ثم يبلغ من تفقدها وحسن خبرها والنظر فى عواقب أمرها، أنها تخاف على الحبوب التى ادخرتها للشتاء فى الصيف، أن تعفن وتسوس، ويقبلها بطن الأرض فتخرجها إلى ظهرها لتيبسها وتعيد إليها جفوفها، وليضربها النسيم وينفى عنها العفن والفساد. ثم ربما كان ـ بل يكون أكثر مكانها نديا، وإن خافت أن تنبت نقرت موضع القطمير (أى شق النواة) من وسط الحبة، وتعلم أنها من ذلك

---

(١) أرسطو: طباع الحيوان، ترجمة ابن البطريق، ص ٤٢٦.

الموضع تبتدئ وتنبت وتنقلب، فهى تقلب الحب كله أنصافا، فأما إذا كان الحب من حب الكزبرة فلقته أرباعا، لأن أنصاف حب الكزبرة ينبت من بين جميع الحبوب. فهى على هذا الوجه مجاوزة لفطنة جميع الحيوان حتى ربما كانت في ذلك أحزم من كثير من الناس. ولها مع لطافة شخصها وخفة وزنها، فى الشم والاسترواح (التشمم)، ما ليس لشيء، وربما أكل الإنسان الجراد أو بعض ما يشبه الجراد، فتسقط من يده الواحدة أو صدر الواحدة، وليس يرى بقربه ذرة ولا له بالذر عهد فى ذلك المنزل، فلا يلبث أن تقبل ذرة قاصدة إلى تلك الجرادة فترومها وتحاول قلبها ونقلها وسحبها وجرها، فإذا أعجزتها بعد أن بلغت بها عذرا مضت إلى جحرها راجعة، فلا يلبث ذلك الإنسان أن يراها قد أقبلت، وخلفها صويحباتها كالخيط الأسود الممدود حتى يتعاون عليها فيحملنها. فأول ذلك صدق الشم

لما لا يشمه الإنسان الجائع. ثم بعد الهمة والجراءة على محاولة نقل شيء فى وزن جسمها مائة مرة، وأكثر من مائة مرة. وليس شيء من الحيوان يقوى على حمل ما يكون ضعف وزنه مراراً غيرها. وعلى أنها لاترضى بأضعاف الأضعاف، إلا بعد انقطاع الأنفاس"(١).

٢ ـ النحل:

أ ـ قول أرسطو فيه:

"وفى أعمال أصناف النحل وتدبيره لمعايشه اختلاف كثير. وإذا أصاب النحل خلية نقية نظيفة يبنى فيها بيوتا من الموم وإنما يأتى ذلك الموم من سائر الأزهار ومن أطراف الشجر ومن الخلاف وسائر الأصناف التى فيها رطوبة لزجة. وهو يبنى أولا بيوتا معمولة من شمع، أعنى بالبيوت: الثقب التى يأوى فيها النحل ثم يهيىء البيوت التى يأوى

---

(١) الجاحظ: الحيوان جـ٤ ص ٥ ـ ٩.

إليها ملوك النحل، وذكورة النحل.. والنحلة الكريمة تكون صغيرة مستديرة الجسد مختلفة اللون. وتكون أيضا نحلة أخرى مستطيلة الجسد شبيهة بالنحل الذكر. وتكون نحلة أخرى كبيرة عظيمة البطن. فأما النحلة الذكر فجثته أكبر من سائر جثث النحل غير أنه ليس له حمة، وهو كسل ردئ الحركة. وبين النحل الذى يرعى فى السهل وبين النحل الذى يرعى فى الجبال اختلاف: فإن الذى يرعى فى الفيافى والجبال أصغر وأكثر عملا.. إن النحل مرتب على كل حال من الأعمال، أعنى أن بعض النحل يأتى برحيق الزهر، وبعضه يأتى بالماء؛ وبعضه ينقى ويصلح الموم؛ ومنه ما يسقى ماء إذا كان له فراخ. وليس يجلس النحل على جسد آخر ولا يدنو من أصناف الأطعمة، وليس يعمل النحل زمانا معروفاً ولا وقت الابتداء؛ وإنما يبدأ العمل إذا كان مخصب الحال فى أى زمان كان من السنة.. وإذا قطعت شيئا

من الشهد القوام علـى تعـاهد النحـل، يـتركون للنحـل كفافها من العسل ليكون طعمـا لهـا فـي الشـتاء؛ فـإن كان ذلك الطعم كفافا، سلم النحـل الـذى فـى الخليـة.. وإذا هلك شىء من النحل فى داخل الخلايا، أخرجتـه الأحياء إلى خارج. وهذا الحيـوان نقـى نظيـف جـداً، أكثر من جميع الحيوان، ولذلك يلقى زبله وهو يطـير مرارا شتى، لأنه منتن.. والنحـل يخـرج ماكـان منـه بطالا وما لايقوى علـى العمـل، وهـو يقسـم الأعمـال كما قلنا فيما سلف، ومن النحل ما يسكت حتى تنهض واحدة وتطير مرة أو مرتين؛ فإذا سمعه سائر النحـل طار كله معه ثم تعود أيضا وتصر أولا وتفعل ذلـك رويداً رويدا حتى تمر بها نحلة واحدة وتصر وكأنهـا تعلمها أنه قد بلغ وقـت المـوم، وتسـكت بغتـه. وإنمـا يعرف خصـب الخليـة مـن قبـل كـثرة الـدوى وكـثرة حركة النحل عند خروجه ودخوله(١).

---

(١) أرسطو: طباع الحيوان، ص ٤٢٩ ـ ٤٤١.

ب ـ قول الجاحظ:

"والنحل تجتمع فتقسم الأعمال بينهـا، فبعضهـا يعمل الشمع، وبعضها يعمـل العسل، وبعضهـا يبنـى البيـوت، وبعضهـا يستقى المـاء ويصبـه فـى الثقـب، ويلطخـه بالعسـل. ومنـه مـا يبكـر إلـى العمـل، ومـن النحل ما يكفه (يجمعه) حتى إذا نهضت واحدة منهـا طارت كلها. يقال: "بكر بكور اليعسوب"، يريد أمـير النحل، لأنها تتبعه غدوة إلى عملهـا. ومنهـا مـا ينقـل العسل من أطراف الشجر، ومنها ما ينقل الشمع الذى تبنى به. فلا تزال فى عملها حتى إذا كان الليل آبـت إلى مآبها(١)"

٣ ـ العنكبوت:

أ ـ قول أرسطو فيه:

" وفى العنكبوت جنس آخر حكيم جـداً، دقيـق الخلقة. فإنه ينســج أولاً، ويمـد الشـعر ناحيـة الحـدود والأوتاد ثـم يبتـدئ مـن الوسـط ويكـون لـذى السـدى عظم صالح، ثم يعمل اللحمة ويهيء موضع ما يصيد فى مكان آخـر، ويهيئ موضع الصيد فى الوسط.

---

(١) الجاحظ : الحيوان جـ٥، ص ٤١٦ ـ ٤١٨.

فإذا وقع عليه شيء وتحرك الوسط، يربط ويزداد النسج على ذلك الحيوان حتى يضعف. فإذا علم ضعفه، حمله وذهب به إلى خزانته. وإن كان جائعا من ساعته، يمصّ ما فيه من الرطوبة ويخليه.. وإذا ولد العنكبوت، قوى من ساعته على النسج وذلك الذى ينسج به لا يخرج من داخل جوفه مثل فضله، كما قال ديمقراطيس، بل من خارج جسده، فإنه على جسده مثل اللحاء، وهو شبيه بما يبرز شعره وشوكه من الحيوان. والعنكبوت يلف وينسج نسجه على الحيوان الأعظم من الذباب أيضا، فإنه ينسج على السام أبرص الصغير ويربط فاه أولا. وإذا فعل ذلك واحترز حينئذ يدنو منه ويعضه ويمص الرطوبة التى فيه"(١).

ب ـ قول الجاحظ:

" ومن العناكب جنس يصيد الذباب صيد الفهود وهو الذى يسمى "الليث"، وله ست عيون وإذا رأى الذباب لطئ بالأرض (لصق بها)، وسكن

---

(١) أرسطو: طباع الحيوان، ص ٤٢٧ ـ ٤٢٨ .

أطرافه، وإذا وثب لم يخطئ. وهو من آفات الذبان، ولا يصيد إلا ذبان الناس. ومنها الأجناس طوال الأرجل، والواجدة منها إذا مشت على جلد الإنسان تبثر(ظهرت فيه بثور)، ويقال إن العنكبوت الطويلة الأرجل إنما اتخذت بيتا وأعدت فيه المصايد والحبائل والخيوط التى تلتف على ما يدخل بيتها من أصناف الذبان وصغار الزنابير، لأنها حين علمت أنها لا بد لها من قوت وعرفت ضعف قوائمها، وأنها تعجز عما يقوى عليه الليث احتالت بتلك الحيل؛ ومنها جنس ردىء، مشنوء الصورة (البغيض المكروه) غليظ الأرجل، كثيرا ما يكون فى المكان الترب من الصناديق والقماطر والأسفاط"(١).

٤ ـ الحرباء:

أ ـ قول أرسطو فيه:

" وأما الحيوان الذى يسمى باليونانية فماليون، فجميع جسده شبيه بجسد السام أبرص، فأما أضلاعه فطويلة تنتهى إلى قرب أسفل بطنه مثل أضلاع

(١) الجاحظ: الحيوان، جـ٥ ص ٤١٢ ـ ٤١٦.

السمك. فأما وجهه فشبيه بوجه الحيوان الذى يقال له خويرو فيثيقوس: مركب من قرد وخنزير، وله ذنب طويل جداً، آخره دقيق يلتوى جداً مثل سير وجثته مرتفعة عن الأرض أكثر من السام أبرص وما يشبهه. وكل واحد من رجليه مجزأ بجزئين، قياس بعضها إلى بعض شبيه بقياس إبهام الإنسان إلى سائر كفه، وكل واحد من تلك الأجزاء مجزأ بأصابع، وله أظفار، أعنى مخالب شبيه بمخالب الطير المعقف الأظفار. وكل جسده خشن مثل جسد الجرذون (أى مثل التمساح فى اليونانى). وكلتا عينيه غائرة عظيمة مستديرة يحدق بها، بها جلد شبيه بجلد جميع جسده. وليس يغطى عينيه بذلك الجلد البتة. وهو يحرك عينيه إلى كل ناحية بنوع مستدير. فأما تغيره فإنه يكون إذا نفخ جلده، وجلده ولونه يكون أيضا إلى السواد ما هو، مثل لون الجرذون، ويكون أيضا باهتا (أصفر) مثل لون السام أبرص، ويكون فيه سواد مبقع مثل السواد فى جلد الفهد(١)".

ب ـ قول الجاحظ:

"الحرباء دويبة أعظم من العظاء، أكبر ما

(١) أرسطو: طباع الحيوان، ص ٧١ ـ ٧٣.

كان فرخا، ثم يصغر، وإنما حياته الحر. فتراه أبدا إذا بدت جونة، يعنى الشمس قد لجأ بظهره إلى جذيع (مصغر جذع وهو ما عظم من أصول الشجر المقطع)، فإن رمضت الأرض ارتفع. ثم هو يقلب بوجهه أبدا مع الشمس حيث دارت حتى تغرب، إلا أن يخاف شيئا، ثم نراه شابحا بيديه (مدهما)، كما رأيت من المصلوب. وكلما حميت عليه الشمس رأيت جلده قد يخضر(١)".

٥ ـ الحيات المائية:

أ ـ قول أرسطو فيها:

"وفى البحر أجناس حيات كثيرة مختلفة الألوان وليس تأوى فى الأماكن العميقة المياه جدا، بل فى الأماكن التى تقرب من البر. وليس لشىء من أجناس الحيات أرجل"(٢).

ب ـ قول الجاحظ:

"والحيات المائية إما أن تكون برية أو جبلية، فاكتسحتها السيول واحتملتها فى كثير من أصناف

---

(١) الجاحظ: الحيوان، جـ٦ ص ٣٦٣.

(٢) أرسطو: طباع الحيوان، ص ٨٠.

الحشرات والدواب والسباع، فتوالدت تلك الحيات وتلاقحت هناك. وكيف دارت الأمور فإن الحيات من أصل الطبع مائية. وهى تعيش فى الندى وفى الماء، وفى البر وفى البحر وفى الصخر و فى الرمل. ومن طباعها أن ترق وتلطف على شكلين: أحدهما لطول العمر، والآخر للبعد من الريف. وعلى حسب ذلك تعظم فى المياه والغياض. وكل شىء فى الماء مما يعايش السمك، مما أشبه الحيات كالمارما (هى ضرب من السمك الشبيه بالحيات) والانكليز (ضرب من حيات الماء) فإنها كلها على ضربين: فأحدهما من أولاد الحيات انقلبت مما عرض لها من طباع البلد والماء. والآخر من نسل سمك وحيات تلاقحت، إذ كان طباع السمك قريبا من طباع تلك الحيات"(١).

والآن نأتى إلى مقارنة بين كتابى أرسطو والجاحظ بعد أن أتينا بوصف لبعض أنواع الحيوانات عند كل منهما.

د ـ مقارنة بين كتابى أرسطو والجاحظ:

١ ـ لقد حاول أرسطو فى مطلع كتابه أن

---

(١) الجاحظ: الحيوان، جـ ٤ ص ١٢٨.

يضـع تصنيفـا للحيوانـات، إلا أنـه يجد صعوبـة فـي ذلـك. فهـو يقسـم الحيوانـات تقسـيما غريبـا، حيـث يقسمها إلى قسمين: قسم فيه دم، وقسم ليس فيه دم. ولكنـه لا يتقيـد بهـذا التقسـيم، ويحـاول أن يلتمـس تصنيفا آخر يعتمد فيه على تدبير المعاش والأفعال والغذاء للحيوان. وعلى هذا الأساس يقسم الحيوانـات إلى مائية وبرية، وإلى طيارة وزحافة ومشاءة، كمـا أنـه يقسّمها إلـى فئتيـن: فئـة تعيـش فـي جماعـات، وأخرى تعيش منفردة، وإلى نوع يـأكل الحبـوب، ونـوع يأكل الكل، وإلى ما يتخذ مأوى وما لايتخذ مـأوى وإلـى حيوانات أنيسة تعيش مع الإنسان وحيوانات وحشية(١).

وإذا كان أرسطو قد أخفق إلـى حـد كبـير فـي تصنيفه للحيوانات فإننا نجد الجاحظ أكثر توفيقـا مـن أرسطو. فعند النظر إلى ما وصـل إليـه الجـاحظ فـي مجال التصنيف يتضح للباحث أن هذا العالم قد سـبق كل من حاول تصنيـف الحيـوان بصـورة أقـرب إلـى

---

(١) أرسطو: طباع الحيوان، ترجمة يوحنـا بـن البطريـق، تحقيـق عبـد الرحمـن بـدوى، وكالـة المطبوعـات، الكويـت، الطبعـة الأولـى سـنة ١٩٧٧م، ص ٦ ـ ١٦ ويضم الكتاب المقالات العشر الأولى.

التصنيف العلمى الصحيح والذى أسنده الأوروبيون إلى العالم السويدى كارل لينوس.

فالجاحظ يقسم الحيوانات تقسيمات أكثر دقة وتفصيلا؛ فهو يقسمها إلى أربعة أقسام: قسم يمشى، وقسم يطير، وقسم يسبح، وقسم يزحف على بطنه. والنوع الذى يمشى ينقسم إلى أربعة أقسام: ناس وبهائم وسباع وحشرات. والنوع الذى يطير ينقسم إلى ثلاثة أقسام: سبع وبهيمة وهمج. والسبع من الطير ما يأكل اللحم خالصا، والبهيمة منه تأكل الحب خالصا، أما الهمج فليس من الطير ولكنه يطير. ثم يقسم الجاحظ الحيوان إلى فصيح وأعجم، والفصيح هو الإنسان والأعجم كل ذى صوت لا يفهم إرادته إلا ما كان من جنسه.

وعند تقسيم الطيور يقارن الجاحظ بين مختلف الحيوانات التى تطير؛ فليس عنده كل ما امتلك جناحا أو طار فهو من الطير، وهذا كلام علمى له قيمته ويعطى دلالة على اتساع تفكير الجاحظ . كذلك فى الحيوانات البحرية، فليس كل حيوان يعيش فى البحر من الأسماك، وإنما هناك العديد من الكائنات التى تختلف اختلاف كبيرا من

حيث الشكل والموقع التصنيفي والمعيشة والسلوك(١).

ومن الدراسات العلمية التى تفوق بها الجاحظ على أرسطو وأبدع فيها أيما إبداع تلك الملاحظات القيمة عن هجرة الطيور والأسماك؛ وهو بذلك قد ضرب مثالا رائعا على مدى عمق فكره الذى استمدّه من حضارة العرب والمسلمين العريقة؛ وعن ذلك يقول الدكتور محمد يحيى الهاشمي: "يحدثنا الجاحظ فى كتاب الحيوان عن الحمام الزاجل وعن كيفية رجوعه إلى وطنه، وقد رأى فى هذا الأمر عجبا، ذاكرا لنا محاورة جرت بين أبى إسحق وبين مثنى بن زهير وقول الأخير إنه يبلغ كرم الحمام ووفاؤه وثبات عهده وحنينه إلى أهله أنه ربما قضى الطائر دهرا بعد أن طار منه زمنا طويلا، فمتى نبت جناحه عاد إليه، وكلما زهد فيه كان إليه أرغب. ويعلق الجاحظ على هذه القصة سائلا: هل الطير يحن إلى صاحبه أم إلى عشه الذى درج منه"(٢) .

---

(١) الجاحظ: الحيوان، جـ١، ص ٢٦ ـ ٣٢.

(٢) د. محمد يحيى الهاشمي: تحليل رأى الجاحظ فى الطيور المهاجرة، مجلة الثقافة العدد ٢٨٠ السنة السادسة، القاهرة، ١٩٤٤، ص ٤٤٥.

ويقرر الجاحظ أن الباعث على رجوع الطير الحنين إلى الوطن، ويستدل على ذلك بالطيور المهاجرة "التى خرجت تقطع الصحارى والبرارى والجزائر والغياض والبحار حتى تصير إلينا فى كل عام. فإن قلت إنها ليست تخرج إلينا على سمت ولا على هداية ولا دلالة ولا على أمارة وعلامة، وإنما هربت من الثلوج والبرد الشديد، وعلمت أنها تحتاج إلى الطعم، وأن الثلج قد ألبس ذلك العالم فخرجت هاربة، فلا تزال فى هروبها إلى أن تصادف أرضا خصبا ودفئا فتقيم عند أدنى ما تجد، فما تقول عند رجوعها ومعرفتها بانحسار الثلوج عن بلادها قد اهتدت طريق الرجوع؟! ومعلوم عند أهل تلك الأطراف وعند أصحاب التجارب وعند القانص أن طير كل جهة إذا قطعت رجعت إلى بلادها وجبالها وأوكارها وإلى غياضها وأعشتها... ثم لا يكون اهتداؤها على تمرين وتوطين ولا عن تدريب وتجريب، ولم تلق بالتعليم ولم تثبت بالتدبير والتقويم".

فالجاحظ أمام لغز معقد لم يتمكن العلم الحديث من حله أيضا. وقد مضى على قول الجاحظ

أكثر من أحد عشر قرنا وهو لا يزال لغزا معقدا.

إن الجاحظ فرق بين الطيور المهاجرة التى تترك أوطانها ثم تعود إليها من غير سابق تمرين ومعرفة وبين الحمام الزاجل الذى يتعلم ذلك، وهو كأنه يريد أن يدلل على أن الطيور تشبه البشر فى المعرفة، حيث إن هناك معرفتين هما المعرفة الفطرية والمعرفة المكتسبة(١).

ويقارن الجاحظ هجرة الأسماك بالطيور المهاجرة فيقول: " وأعجب من جميع قواطع الطير قواطع السمك الأشبور والجران والبز، فإن هذه الأنواع تأتى دجلة البصرة من أقصى البحار، تستعذب الماء فى ذلك الإبان كأنها تتمحص بحلاوة الماء وعذوبته بعد ملوحة البحر.. ونحن بالبصرة نعرف الأشهر التى يقبل إلينا فيها الأشبور والجران وأصناف السمك وهى تقبل مرتين فى كل سنة، ثم تجدها فى إحداهما أسمن الجنس فيقيم كل جنس منها عندنا شهرين إلى ثلاثة أشهر، فإذا مضى ذلك الأجل، وانقطعت مدة ذلك الجنس أقبل الجنس الآخر

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٤٦.

في جميع أقسام شهور السنة من الشتاء والربيع والصيف والخريف في نوع من السمك عند النوع الآخر " (١) .

إن دراسة الجاحظ لهجرة الحيوانات المختلفة ذاكر المتشابهة منها والمتباينة ، ساعياً لإقامة البراهين بالحجج المنطقية ، مشابهاً عالم الأسماك بعالم الطيور من جهة الأفعال والأعمال وبخاصة في مجال الهجرة والترحال ، هو قياس منطقي صرف أقره البحث العلمي الحديث .

٢- ويخصص أرسطو قسماً كبيراً من كتابه للحديث عن أعضاء جسم الحيوان ، وذلك في المقالات الأولى والثانية والثالثة والربعة (٢) .

فأعضاء جسم الحيوان تتكون من رأس ووجه وحاجبين وعينين وأذن وعنق وبطن ورئة وقلب وأمعاء وجهاز تناسل وشرايين وأسنان ، ويطيل أرسطو الكلام في هذا المجال ويتعمق فيه ، فيدرس تركيبة هذه الأعضاء ويشرحها تشريحاً طبياً .

بينما نجد الجاحظ يهمل هذه الناحية غالباً ، فلم يبحث في أجزاء جسم الحيوان وكيفية تركيبها على

---

(١) نقلاً عن المصدر السابق

(٢) أرسطو : طباع الحيوان ص١٧-٢٠٠

النحو الذى فعله أرسطو، الأمر الذى يقلل من قيمته العلمية فى هذا الجانب.

٣ ــ ويعالج أرسطو ولادة الحيوان وعملية السفاد وأنواع التوالد ووسائله فى المقالتين الخامسة تركيب هذه الأعضاء ويشرحها تشريحا طبيا. والسادسة(١)، ويتوقف عند الرجل والمرأة ليدرس مظاهر الطمث والحمل والولادة وأسباب العقم دراسة طبية دقيقة فى المقالتين التاسعة والعاشرة(٢).

أما الجاحظ فإنه يتصدى لهذه الناحية، ويتكلم عنها بإسهاب عند مختلف الحيوانات، غير أنه لم يستطع أن يقدم معلومات تشريحية دقيقة بصدد المرأة والرجل كما فعل أرسطو.

٤ ــ ويتحدث أرسطو عن أثر البيئة فى الحيوانات من حيث ما تقدمه لها من غذاء ومناخ يؤثران فى نمائها واستقرارها وصحتها فى المقالتين: السابعة والثامنة(٣). ويتطرق إلى أنواع طعام الحيوانات والأمراض التى تعتريها وهجرتها.

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٠١ ــ ٣٠١.
(٢) المصدر السابق، ص ٣٧١ ــ ٥٠٣.
(٣) المصدر السابق، ص ٣٠٣ ــ ٤٥٩.

أما الجاحظ فإنه يتناول الموضوع ذاته، غير أنه لا يركز على تغذية الحيوانات وأثر ذلك في صحتها والأمراض التي تعتريها، وإنما يهتم بتأثير البيئة في جسم الحيوانات وطبعها وسلوكها اهتماما بالغا، وهو يتفوق على أرسطو من هذه الناحية.

فالجاحظ يرى أن للبيئة أثرها الذي لا ينكر في اختلاف صور الحيوان وطبائعه وسلوكه وأخلاقه وألوانه "وقد رأينا اختلاف صور الحيوان، على قدر اختلاف طبائع الأماكن. وعلى قدر ذلك شاهدنا اللغات والأخلاق والشهوات(١). "قالوا: وإنما صارت ألوان سكان إقليم بابل السُمرةَ، وهي أعدل الألوان، لأنهم لم يولدوا في جبال ولا على سواحل بحار. فخرجت عقولهم الباطنة من الاعتدال والاستواء على حسب ألوانهم وشمائلهم الظاهرة"(٢). "وقال الصنف الآخر: لا ننكر أن يفسد الهواء في ناحية من النواحي فيفسد ماؤهم وتفسد تربتهم، فيعمل ذلك في طباعهم على الأيام، كما عمل

---

(١) الجاحظ: الحيوان، جـ٣ ص ٢٩٤.

(٢) الجاحظ: البرصان والعرجان، ص ٤٨.

ذلك فى طباع الزنج، وطباع الصقالبة، وطباع بلاد يأجوج ومأجوج. وقد رأينا العرب وكانوا أعرابا حين نزلوا خراسان، كيف انسلخوا من جميع تلك المعانى، وترى طباع بلاد الترك كيف تطبع الإبل، والدواب وجميع ماشيتهم: من سبع وبهيمة، على طبائعهم. وترى جراد البقول والرياحين وديدانها خضراء، وتراها فى غير الغضرة على ذلك. وترى القملة فى رأس الشاب الأسود الشعر سوداء، وتراها فى رأس الشيخ الأبيض الشعر بيضاء... وقد نرى حَرّة بنى سليم وما اشتملت عليه من إنسان وسبع وبهيمة وطائر وحشرة فتراها كلها سوداء(١) " وقد تحمر أو بار الإبل جدا على بعض المراعى... وتبيض الإبل ورءوسها ووجوهها من أكل الحمض"(٢) "وقد علمنا أن الطائر الصيود من الجوارح، لو أقام فى بلاده مائة عام لم يحدث لمنسره زوائد، وعير العانة إذا أقام فى غير بلاده احتاج إلى الأخذ من حافرة، وإلى أن يختلف به إلى

---

(١) الجاحظ: الحيوان جـ٤، ص ٧٠ ـ ٧١.

(٢) الجاحظ: البرصان والعرجان، ص ٤٢ ـ ٤٣.

البيطار، والطائر الوحشىّ من هذه المغنيات والنوائح، لو أقام عندنا دهرا طويلا لم يصوت إذا أخذناه وقد كرز (سقط ريشه). وكذلك المزاوجة والتعشيش والتفريخ"(١).

ويرى الجاحظ أن الروائح والعطور تشيب الشعر، وغسل الرأس بالسدر يرقه(٢).

٥ ـ وهناك ناحية مهمة لها طابع فلسفى قد خصص لها أرسطو قسما من كتابه(٣)، وذلك فى المقالات: الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة. هذه الناحية المهمة هى الغائية فى خلق الحيوان. حيث يعود مرة أخرى إلى أعضاء جسم الحيوان، عضوا عضوا، يبحث عن الغاية من تكوينها على الشكل الذى هى عليه. ويقول إن العلة المادية (الهيولى) لا تكفى لتفسير الحياة، ويجب

---

(١) الجاحظ: الحيوان، جـ٧، ص ١٠٠.

(٢) الجاحظ: البرصان والعرجان ص ٤٠ ـ ٤١.

(٣) أرسطو: أجزاء الحيوان، ترجمة يوحنا بن البطريق، تحقيق عبد الرحمن بدوى وكالة المطبوعات الكويتية، الطبعة الأولى ١٩٧٨ ويضم الكتاب المقالات ١١،١٢،١٣،١٤.

البحث عن العلة الصورية التى يسميها النفس "وهو بين قولهم ليس بصواب، لأنه ينبغى أن يقال ويبين لماذا الحيوان، ومثل ماذا هو، ونصف كل واحد من الأعضاء كما نصف صورة السرير، وإن كان ذلك نفسا أو جزء نفس .."(١).

وأرسطو ينكر مذهب الصدفة، ويرى أن "من الناس من يزعم أن كل واحد من الحيوان يكون من قبل الطباع وأن كينونة السماء من ذاتها ومن البخت، وكذلك كان تقويمها. وليس يرى أن فى السماء شيئاً من البخت ولا عدم الترتيب والقصد ونحن نقول فى كل موضع يظهر فيه تمام يكون فيه غاية الحركة إليه إذا لم يكن له شيء مانع البتة"(٢). وقد عبّر أرسطو عن الغائية أحسن تعبير فى حديثه عن اليد ودورها فى حياة الإنسان "ولم يحتج الإنسان إلى مقاديم الرجلين، بل هيأ له الطباع بدل الرجلين المقدمتين: عضدين ويدين. وقد قال أناسا غورس إنه لهذه العلة ـ أعنى أن للإنسان يدين ـ صار أعقل

---

(١) المصدر السابق ص ٤٦.

(٢) المصدر السابق ص ٤٧ ـ ٤٨.

وأحلم من جميع الحيوان. والأولى أن نقول إنه لكونه أعقل الحيوان صارت له يدان، لأن اليدين أكثر من الآلات، فأما الطباع فهو يبقى دائما على حاله"(١).

وبما أن علمنا بالجواهر السماوية يسير لعظم شأنها، فإنه ينبغي أن ننظر في الكائنات التي بين أيدينا "ويتبقى لنا أن لا نكره النظر في طباع الحيوان الحقير الذي ليس بكريم، ولا يصعب ذلك علينا كما يصعب على الصبيان. وفي جميع الأشياء الطباعية شيء عجيب"(٢).

هذا هو حديث أرسطو عن الغائية في خلق الحيوان، أما الجاحظ فهو يقول ـ أيضا ـ بالغائية في الطبيعة مثل أرسطو، ويذهب إلى أن كل ما فيها من كائنات تدل على وجود خالق مدبر حكيم. وما على الإنسان إلا أن ينظر إلى هذه الحيوانات ليستدل من عجيب تكوينها وغريب أحوالها على حكمة الله تعالى ووجوده "ونبهنا تعالى وعز على هذه المناسبة وعلى هذه المشاركة (بين الإنسان والحيوان)، وامتحن ما

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠٧.

(٢) المصدر السابق ص ٦١ ـ ٦٢.

عندنا بتقديمها علينا فى بعض الأمور وتقديمنا عليها فى أكثر الأمور، وأراد بذلك أن لا يخلينا من حجة ومن النظر إلى عبرة وإلى ما يعود عند الفكر موعظة.."(١).

بل إن الجاحظ يرى أن أحقر الحيوانات تقدم أكبر الدلالة على الله تعالى وحكمته "ألا ترى بأن الجبل ليس بأدل على الله من الحصاة، وليس الطاووس المستحسن بأدل على الله من الخنزير المستقبح، وإن اختلفا فى جهة البرودة والسخونة فإنهما لا يختلفان من جهة الدلالة والبرهان"(٢).

وبصفة عامة فإن الجاحظ يرى أن كل مافى العالم يشتمل على الحكمة والغاية سواء كان عاقلا أو غير عاقل وسواء كان جمادا أو نامياً "ووجدنا كون العالم بما فيه حكمة، ووجدنا الحكمة على ضربين: شيء جعل حكمة وهو لا يعقل الحكمة ولا عاقبة الحكمة، وشيء جعل حكمة وهو يعقل الحكمة وعاقبة الحكمة. فاستوى بذلك الشيء العاقل وغير العاقل فى

---

(١) الجاحظ: الحيوان جـ٧ ص ١٠.

(٢) المصدر السابق جـ١ ص ٢٠٣، ٢٠٦.

جهة الدلالة على أنه حكمة؛ واختلفا من جهة أن أحدهما دليل لا يستدل، والأخر دليل يستدل، فكل مستدل دليل وليس كل دليل مستدلا، فشارك كل حيوان سوى الإنسان جميع الجماد فى الدلالة، وعدم الاستدلال، واجتمع للإنسان أن كان دليلا مستدلا. ثم جعل للمستدل سبب يدل به على وجوه استدلاله، ووجوه مانتج له الاستدلال، وسموا ذلك بيانا. وجعل البيان على أربعة أقسام: لفظ، وخط، وعقد (نوع من الحساب يكون بأصابع اليدين يقال له: حساب اليد)، وإشارة، وجعل بيان الدليل الذى لا يستدل تمكينه المستدلَّ من نفسه، واقتياده كلَّ من فكر فيه إلى معرفة ما استخزن من البرهان، وحشى من الدلالة، وأودع من عجيب الحكمة. فالأجسام الخرس الصامتة ناطقة من جهة الدلالة، ومعْربة من جهة صحة الشهادة على أن الذى فيها من التدبير والحكمة مخبر لمن استخبره، وناطق لمن استنطقه، كما خبّر الهزالُ وكسوف اللون عن سوء الحال، وكما ينطق السِّمَن وحُسْن النّضرة عن حسن الحال..

وقال الفضل بن عيسى بن أبان فى قصصه: سل الأرض، فقل: من شق أنهارك، وغرس

أشجارك، وجنى ثمارك؟ فإن لم تجبك حوارا، أجابتك اعتبارا.

فموضوع الجسم ونصْبته، دليل على ما فيه وداعية إليه ومنبهة عليه فالجماد الأبكم الأخرس من هذا الوجه، قد شارك في البيان الإنسان الحيّ الناطق. فمن جعل أقسام البيان خمسة، فقد ذهب أيضا مذهبا له جواز في اللغة، وشاهد في العقل فهذا أحد قسمي الحكمة، وأحد معنيي ما استخزنها الله تعالى من الوديعة.

والقسمة الأخرى ما أودع صدور صنوف سائر الحيوان، من ضروب المعارف، وفطرها عليه من غريب الهدايات، وسخر حنا جرها له من ضروب النّغم الموزونة، والأصوات الملحنة، والمخارج الشجية، والأغاني المطربة، فقد يقال إن جميع أصواتها معدلة وموزونة وموقعة، ثم الذى سهل لها من الرفق العجيب في الصنعة، مما ذلله الله تعالى لمناقيرها وأكفها، وكيف فتح لها من باب المعرفة على قدر ما هيّأ لها من الآلة، وكيف أعطى كثيرا منها من الحسّ اللطيف، والصنعة البديعة، من غير تأديب وتثقيف ومن غير تقويم وتلقين، ومن

غير تدريــج وتمريـن، فبلغت بعفوهـا وبمقدار قـوى فطرتهــا، مــن البديهــة والارتجــال، ومــن الابتــداء والاقتضاب، ما لا يقدر عليـه حُذّاق رجـال الـرأى، وفلاسفة علماء البشر، بيد ولا آلــة. بـل لا يبلـغ ذلـك من الناس أكملهم خصالا وأتمهم خلالا، لا مـن جهـة الاقتضــاب والارتجــال، ولا مــن جهــة التعسّــف والاقتدار، ولا من جهـة التقدم فيـه، والتــأنى فيــه، والتـأتى لـه، والترتيب لمقدماتــة، وتمكـن الأسـباب المعينـة عليـه. فصـار جهد الإنسـان الثـاقب الحـسّ، الجامع القوى، المتصـرف فـى الوجـوه، المتقدّم فـى الأمور، يعجز عن عفو كثير منهـا، وهـو ينظـر إلـى ضـروب مـا يجئ منهـا، كمـا أعطيت العنكبـوت .. وكما عُلّم النحل .. فى غير ذلك من أصناف الخلــق. ثم لم يوجب لهم العجز فى أنفسهم فى أكثر ذلـك، إلا بما قوى عليه الهمج والخشـاش وصغـار الحشـرات، ثـم جعل الإنسـان ذا العقــل والتمكيــن والاسـتطاعة والتصريــف، وذا التكلـــف والتجربـــة، وذا التـــأنى والمنافسة، وصاحب الفهم والمسابقة، والمتبصّر شأن العاقبة، متــى أحسن شيئا كـان كـل شـيء دونـه فـى الغموض عليه أسهل، وجعل سائر الحيوان، وإن كان

يحسن أحدها ما لا يحسن أحذق الناس متى أحسن شيئاً عجيبا لم يمكنه أن يحسن ما هو أقرب منه فى الظن، وأسهل منه فى الرأى، بل لا يحسن ما هو أقرب منه فى الحقيقة، فلا الإنسان جعل نفسه كذلك، ولا شيء من الحيوان اختار ذلك، فأحسنت هذه الأجناس بلا تعلّم، ما يمتنع على الإنسان وإن تعلم، فصار لا يحاوله إذ كان لا يطمع فيه، ولا يحسدها إذ لا يؤمل اللحاق بها.

ثم جعل تعالى وعز هاتين الحكمتين بإزاء عيون الناظرين، وتجاه أسماع المعتبرين، ثم حث على التفكير والاعتبار، وعلى الاتعاظ والازدجار، وعلى التعرف والتبين، وعلى التوقف والتذكر، فجعلها مذكرة منبهة، وجعل الفطر تنبش الخواطر وتجول بأهلها فى المذاهب. ذلك الله رب العالمين فتبارك الله أحسن الخالقين"(١).

فكل ما فى السموات والأرض دال على الخالق ومقر بربوبيته وتوحيده: "وذلك ظاهر فى خلق السموات والأرض، وفى كل صامت وناطق،

---

(١) الجاحظ: الحيوان جـ١ ص ٣٣ ـ ٣٦.

وجامد ونام، ومقيم وظاعن، وزائد وناقص. فالدلالة التى فى الموات الجامد، كالدلالة التى فى الحيوان الناطق. فالصامت ناطق من جهة الدلالة، والعجماء معربة من جهة البرهان ... وقال بعض الخطباء: أشهد أن السموات والأرض آيات دالات وشواهد قائمات، كل يؤدى عنك الحجة ويشهد لك بالربوبية، موسومة بآثار قدرتك، ومعالم تدبيرك التى تجليت بها لخلقك، فأوصلت إلى القلوب من معرفتك ما أنّسها من وحشة الفكر، ورجم الظنون. فهى على اعترافها لك، وافتقارها إليك شاهدة بأنك لا تحيط بك الصفات، ولا تحدك الأوهام، وأن حظ الفكر فيك، الاعتراف لك"(١).

إن الجاحظ ــ خلافا لأرسطو ــ يتوسع فى الحديث عن الغائية والحكمة فى كل مخلوقات الكون؛ وقد أوردنا هذين النصين الأخيرين ـ على طولهما ـ لنثبت بما لا يدع مجالا للشك أن هناك فرقا كبيرا بين غائية أرسطو وغائية الجاحظ، فغائية أرسطو غائية طبيعية، بينما نجد غائية الجاحظ غائية دينية تنطلق

---

(١) المصدر السابق جـ١ ص٨١.

من إيمانه بالوحى وبالدين المنزل من عند الله سبحانه وتعالى، فشتان ما بين الغائيتين.

أما فيما عدا ذلك فإنه يمكن القول بأن أرسطو كان أكثر منهجية علمية من الجاحظ، حيث قسم أرسطو كتابه إلى مقالات، تدور كل مقالة حول ناحية من نواحى الحيوان؛ فمقالة تبحث فى أعضاء الجسم، وثانية فى تناسل الحيوانات، وثالثة فى غذائها، إلى غير ذلك. أما الجاحظ فلم يفعل ذلك، فقد بدأ كتابه بسرد أسماء كتبه، ثم تحدث عن أقسام الكائنات فوسائل البيان، وبعد ذلك راح يتكلم عن مقارنة بين الكلب والديك بشكل مناظرة بين متكلمين يتخللها استطراد فى الخصاء، وانتقل بعدها إلى الكلام عن سائر الحيوانات تباعا من حمام وذبان وجعلان وهدهد ورخم وخفاش ونمل وقرد وخنزير وحيات وظليم، إلى غير ذلك من الأصناف والمعارف المختلفة.

وبعد هذه المقارنة بين كتابى أرسطو والجاحظ فى الحيوان نود أن نوضح موقف الجاحظ من أرسطو حتى نتبين مدى أصالة الأول.

هـ ـ موقف الجاحظ من أرسطو:

يتضح من المقارنة بين وصف بعض الحيوانات عند كل من أرسطو والجاحظ، ومن المقارنة بين كتابيهما أن الجاحظ قد جعل من كتاب أرسطو فى الحيوان مصدرا من مصادر بحثه، وأنه رجع إليه واستشهد به أكثر من ستين مرة.

والجاحظ يورد أقوال أرسطو ويعرضها بأمانة، وبالصورة التى وردت عليها فى الترجمة التى اضطلع بها ابن البطريق وانتهت إلينا. ومن هنا يخطئ من يقول إن مانسبه الجاحظ لأرسطو إما أن يكون رآه فى كتب منحولة للفيلسوف أرسطو وإما أن يكون ألفها من عنده(١).

وبعد أن يورد الجاحظ أقوال أرسطو يعلن موقفه منها، فإما أن يقبلها وفى هذه الحال لا يعلق عليها فيكون قبوله بها ضمنيا، وإما أن يشك فيها فيتوقف عن الحكم عليها، فهو يورد ـ مثلا ـ خبر الحيّة الصغيرة الشديدة اللدغ فى بلدة "طبقون" والتى لا يمكن الشفاء منها إلا إذا عولج الملدوغ بحجر

---

(١) هو فؤاد أفرام البستانى، انظر مجلة المشرق، المجلد ٢٦ ص ٦٦٦.

يخرج من قبور قدماء الملوك، ثم يقول معقبا عليه: "ولم أفهم هذا، ولم كان ذلك"(١). وهذا الخبر ورد فى كتاب أرسطو على النحو التالى: "ويكون أيضا فى النبات الذى يسمى باليونانية صلفيون حية صغيرة رديئة اللسع جدا ويزعمون أن تلك اللسعة تعالج بحجر يؤخذ من قبر الملوك، وذلك الحجر ينقع بشراب ويشرب ذلك الشراب"(٢).

وإما أن يرفضها الجاحظ وينتقدها؛ فهو يقول ـ مثلا ـ فى كتاب الحيوان: "وقد ذكر أرسطو طاليس فى كتاب الحيوان أنه قد ظهر ثور وثب بعد أن خصى فنزا على بقرة فأحبلها ولم يحك هذا عن معاينة، والصدور تضيق بالرد على أصحاب النظر وتضيق بتصديق هذا الشكل"(٣). وقد ورد هذا الخبر فى كتاب أرسطو على الشكل التالى: "وقد عرض لثور من الثيران أنه خصى ثم سفد من ساعته وعلقت منه الأنثى، فهذه صفة خصى الحيوان

---

(١) الجاحظ: الحيوان جـ٤ ص ٢٢٧.

(٢) أرسطو: طباع الحيوان ص ٣٦٨.

(٣) الجاحظ: الحيوان جـ٥ ص ٥٠٢.

وخلقها واختلافها"(١). وينكر الجاحظ ـ أيضا ـ كون السمكة لا تبتلع شيئا إلا مع الماء فيقول: "قال صاحب المنطق إن الضفادع لا تنق حتى تدخل فكها الأسفل في الماء ... أما قوله إن السمكة لا تبتلع شيئا من الطعم إلا ببعض الماء فأى عيان دل على هذا؟ وهو عسر"(٢).

وقد لا يكتفى الجاحظ بإبداء شكه فيما يقوله أرسطو وإنما يسخر منه سخرية لاذعة؛ فمن هذا قوله : "وقد أكثر فى هذا الباب أرسطو طاليس، ولم أجد فى كتابه على ذلك من الشاهد إلا دعواه. ولقد قلت لرجل من البحريين: زعم أرسطوطاليس أن السمكة لا تبتلع الطعم أبدا إلا ومعه شيء من ماء، مع سعة المدخل وشره النفس. فكان جوابه أن قال لى: ما يعلم هذا إلا من كان سمكة مرة أو أخبرته به سمكة، أو حدثه بذلك الحواريون أصحاب عيسى فإنهم كانوا صيادين وكانوا تلامذة المسيح"(٣).

---

(١) أرسطو: طباع الحيوان ص ٩٩.

(٢) الجاحظ: الحيوان جـ٥ ص ٥٤١.

(٣) الجاحظ: الحيوان جـ٦ ص ١٧.

ويقرأ الجاحظ فى حيوان أرسطو خبرا غريبا مفاده أنه "قد ظهرت حية لها رأسان"(١). لم يقتنع الجاحظ بالأسباب التى ساقها أرسطو تعليلا لوجود تلك الحية العجيبة ذات الرأسين، إذا لا يعتقد أن الظواهر الطبيعية تخضع للتعليلات، أو ينفع فى إثباتها أو نفيها البرهان المنطقى، ويذهب إلى أن العيان هو الوسيلة الوحيدة التى يمكن الركون إليها فى الطبيعيات. وبناء على هذا يشك فى خبر أرسطو ويروح يسأل الناس عما إذا كان أحدهم قد رأى حية ذات رأسين، فيجيبه أعرابى أن خبر مثل تلك الحية حق. ولكن الجاحظ يعد كلام الأعرابى متناقضا وكاذبا. ونحن نروى الخبر كما ورد عند الجاحظ لنبين الفرق بين منهجه ومنهج أرسطو؛ يقول الجاحظ: "وزعم صاحب المنطق أنه قد ظهرت حية لها رأسان، فسألت أعرابيا عن ذلك فزعم أن ذلك حق، فقلت له: فمن أي جهة الرأسين تسعى، ومن

---

(١) أرسطو: كون الحيوان، ترجمة يحيى بن البطريق، تحقيق بان بروخمان، ليدن، ١٩٧١، ص ١٥١ ويضم الكتاب المقالات الخمس الأخيرة.

أيهما تأكل وتعض؟ فقال: أما السعى فلا تسعى، ولكنها تسعى لحاجتها بالتقلب كما يتقلب الصبيان على الرمل. وأما الأكل فإنها تتعشى بفم وتتغدى بفم. وأما العض فإنها تعض برأسيها معا، فإذا به أكذب البرية. وهذه الأحاديث كلها مما يزيد فى الرعب منها وفى تهويل أمرها"(١).

هذا هو موقف الجاحظ من أرسطو؛ إنه يعتمد عليه ويجعله مصدرا من مصادر معلوماته ولكنه لم يعتمد عليه كليا بل فتش عن مصادر أخرى استقى منها والتى تحدثنا عنها فى مصادر ثقافة الجاحظ فى علم الحيوان. وقد امتحن مدى صحة معلومات الفيلسوف اليونانى التى تبقى موضع شك لديه حتى يؤيدها العيان والتجربة أو السماع الصادق أو الشعر الموثوق؛ فللجاحظ ثقة تامة فى الشعر العربى، فهو يصدره فى الرد على أرسطو ويحتج به عليه. فقد قال بعد أن سرد قول أرسطو فى عقوق العقاب وجفائها لأولادها، فأما أشعار العرب فهى تدل على خلاف ذلك، قال دريد بن الصمة:

---

(١) الجاحظ: الحيوان جـ٤ ص ١٥٦ .

وكل لجوج في العناق كأنها

إذا اغتمست في الماء فتخاء كاسر

لها ناهض في الوكر قد مهدت له

كما مهّدت للبعل حسناء عاقر(١).

وهكذا يتضح لنا أن الجاحظ قد عارض أرسطو ورد عليه في كتاب الحيوان، فتناول الموضوع ذاته ولكن بذهنية مختلفة ومنهج مغاير. فهو لم يدرس من الحيوان سوى طباعه، وأهمل خصائصه الجسمية الخارجية والداخلية. وهو لم يقتصر كأرسطو على التجربة والعيان كمصدر من مصادره، وإنما اعتمد أيضا وبشكل واسع على السماع والشعر والقرآن والأحاديث ومؤلفات القدماء. وهو لم يتبع منهجا واحدا في كتابه ولهذا نجد كثيرا من الاستطراد عنده، ولم تكن ثقته بأرسطو أشد من ثقته في شاعر أو أعرابي. ولهذا ليس في كتابه إلا أثر ضئيل من آثار حيوان أرسطو، علم الرغم مما نقله عنه(٢). وقد أخطأ البغدادي في

---

(١) الجاحظ: الحيوان جـ٧ ص ٣٧.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية جـ٦ ص ٢٣٦.

قولــه بــأن الجــاحظ "ســلخ معــانى كتــاب الحيــوان لأرسطاطاليس، وضم إليه ما ذكره المدائنى من حكم العرب وأشعارها فى منـافع الحيـوان"(١). ليتهمـه بالنقل، ولينفى عنده الجدة والمنهج الإبداعى.

هذا هو موقف الجـاحظ مـن أرسـطو وهـو موقف أصيل يدل علـى أصالـة المفكـر المسلم تجـاه الثقافات الأخرى، ولاسيما إذا كانت هذه الثقافـة مثـل الثقافة اليونانية.

---

(١) عبد القاهر البغدادى: الفرق بين الفرق دار الآفـاق بيروت ١٩٧٣ ص ١٦٢.

الفصل الخامس

الجاحظ والعلم الحديث



أ ـ سيكولوجية الحيوان عند الجاحظ:

لقد كان للجاحظ فضل السبق فى مجال دراسة سلوك الحيوان والطرق العلمية التى اختطها فى بحوثه فى هذا المجال. يحدثنا الدكتور أحمد أمين عن هذا فيقول: "إن الجاحظ سبق إلى اتجاهات قيمة فيما يسمى بسيكولوجية الحيوان؛ فهو يراقب نداء الديك؛ بالليل، ويبحث هل إذا كان فى قرية وحده يصيح أولا. ويراقب الدجاج هل يكثر فراخها إذا كثر عديدها أو تقل؟ ويلاحظ الكلب ملاحظة دقيقة ليعلم مقدار ذكائه ووجوه تنبهه والفروق الدقيقة بين أصنافها، إلى كثير من أمثال ذلك"(١).

والواقع أن علم نفس الحيوان، علم جديد، غير أن كتاب الحيوان الذى ألفه الجاحظ فى القرن الثالث الهجرى والتاسع الميلادى قد تضمن ملاحظات كثيرة يمكن عدّها بذورا وأصولا لهذا العلم الحديث.

فقد أقر الجاحظ مبدأ أساسيا هو أن الغريزة هى التى تسيطر على سلوك الحيوان وتسيره، وهى

---

(١) أحمد أمين: ضحى الإسلام، الطبعة السادسة، القاهرة ١٩٦١ جـ١ ص ٣٩٨ ـ ٣٩٩.

طبع فطر عليه، تعمل بمنتهى الدقة، وتقوم فى الحيوان مقام العقل فى الإنسان. ومثلما أن العقل يرشد الإنسان إلى ما فيه خيره وصلاحه، فيدله على الطريق المستقيمة التى ينبغى سلوكها، فكذلك الغريزة ترشد الحيوان إلى ما يحقق منفعته وسلامته "وإن كان الإنسان يبلغ بالروية والتصفح والتحصيل والتمثيل ما لايبلغه شيء من السباع والبهائم، فإن لها أمورا تدركها وصفة تحذقها تبلغ منها بالطبائع سهوا وهويا ما لا يبلغ الإنسان فى ما هو بسبيله إلا أن يكره نفسه على التفكير وعلى إدامة التنقير والتكشيف والمقاييس.."(١).

وكما يختلف الناس فى سلوكهم وأخلاقهم، فكذلك الحيوانات تختلف فى طباعها. "فبعضها يعرف بالمكر والحيل والكيس والروغان، وبالفطنة والخديعة والرفق والتكسب والعلم بما يعيشه والحذر مما يعطاه وتأتيه لذلك وحذقه"(٢) وبعضها الآخر "يعرف بالثقافة .. والصبر على المطاولة والعزم والروغان

---

(١) الجاحظ: الحيوان جـ١ ص ١٧، ٣٥ ـ ٣٦.

(٢) المصدر السابق جـ١ ص ١٨.

والمكر والجولان، ووضع تلك التدابير فى مواضعها حتى لا ترى له طعنة ولا تخطئ له وثبة"(1). وبعضها "يعرف بالنظر فى القيافة، وبإحكام شأن المعيشة، والأخذ لنفسه بالثقة وبالتقدم فى حال المهلة والادخار ليوم الحاجة"(2).

ويرى الجاحظ أنه على الرغم من سيطرة الغريزة على سلوك الحيوانات وطباعها فإنها قابلة للتعلم كالإنسان. مثال ذلك الحمام الذى يتميز بمقدرة على الاستدلال والحفظ والألفة للأوطان ويستخدم فى البريد "والدليل على أنه يستدل بالعقل والمعرفة والفكر والعناية أنه إنما يجيء على الغاية على تدريج وتدريب وتنزيل .."(3).

وعند الجاحظ معظم الحيوانات ـ عدا الخنزير والذئب ـــ تقبل التربية والتأديب؛ فالخنزير "يكون أهليا ووحشيا كالحمير والسنانير مما يعاشر الناس. وكلها لا تقبل الآداب. وإن الفهود وهى وحشية تقبل كلها، كما تقبل البوازى والشواهين والصقورة الزرق

---

(1) الجاحظ: الحيوان جـ1 ص 18.
(2) المصدر السابق.
(3) المصدر السابق جـ3 ص 215.

والبؤبؤ والعقاب وعتاق الأرض وجميع الجوارح والوحشيات"(١).

وقد لاحظ الجاحظ أن صغار الحيوان أسهل فى التأديب والترويض من كبارها "لأن الصغير إذا أدب فبلغ، خرج جبانا مواكلا، والمسن الوحشى يخلص لك كله حتى يصير أصيد وأنفع، وصغار السبع والطير وكبارها على خلاف ذلك، وإن كان الجميع يقبل الآداب"(٢). وأقدر الحيوانات على التعلم أربعة هى الدب والقرد والفيل والكلب(٣).

وينتهى الجاحظ إلى نظرية مهمة، وهى أن الحيوانات تملك قدرا من الذكاء إلى جانب الغريزة، وهو قدر يتفاوت بين حيوان وآخر. فالحيات مثلا تحتال بضروب من الحيل لصيد فريستها؛ فبعضها ينتصب فى الرمال عند الهاجرة كالعود، فيأتى الطير فيخدع بمنظرها الذى يشبه العود ويجثم عليها فتقبض عليه وتبتلعه(٤). ويذهب الجاحظ إلى ما هو أبعد من

---

(١) المصدر السابق جـ٤ ص ٤٧.
(٢) المصدر السابق جـ٤ ص ٤٧ ـ ٤٨.
(٣) المصدر السابق جـ٦ ص ٣١٦.
(٤) المصدر السابق جـ٤ ص ٩٩.

هذه الغاية حيث يرى أن للحيوانات لغة بها تتفاهم، وإن كانت هذه اللغة تختلف عن لغة البشر.

يقول الجاحظ: "إن للطير منطقا تتفاهم به حاجات بعضها البعض، ولا حاجة إلى أن يكون لها فى منطقها فضل لا تحتاج إلى استعمله، وكذلك معانيها فى مقادير حاجاتها"(١). ومن الأمثلة على ذلك ما يحدث للنمل، إذ نرى الذرة عند ما تعجز عن جر جسم أكبر منها كالجرادة تذهب إلى رفيقاتها وتدعوهن إلى مؤازرتها، وبعد قليل نراها قد عادت برفقتهن ويتعاون على جرا الجرادة. ويلاحظ أن عند السنانير خمسة أصوات يدل كل منها على حاجة؛ فصوت يدل على الضرب، وصوت يدل على الدعاء للطعام، وصوت يدل على الجوع، وصوت يدل على استدعاء أخواتها إليها، وصوت يدل على العراك والمشاجرة(٢).

كما يرى الجاحظ أن بعض الحيوانات تفهم لغة البشر عندما يكلمونها، ولاسيما تلك الحيوانات

---

(١) الجاحظ: الحيوان جـ٧ ص ٥٦.

(٢) الجاحظ: الحيوان جـ٤ ص ٢٢،٧، جـ٥ ص ٢٨٩.

الأليفة التى تعيش معهم "والناس قد يكلمون الطير والبهائم والكلاب والسنانير والمراكب وكل ما كان تحتهم من أصناف الحيوان التى قد خولوها وسخرت لهم. أو ربما رأيت القراد يكلم القرد بكل ضرب من الكلام ويطيعه القرد فى كل ذلك. وكذلك ربما رأيته يلقن الببغاء ضروبا من الكلام والببغاء يحكيه. وإن فى غراب البين لعجبا، وكذلك كلامهم للدب والكلب والشاة المكية، وهذه الأصناف التى تلقن وتحكى"(١).

وقد سبق الجاحظ العالم "بافلوف" صاحب نظرية الارتباط أو الانعكاس الشرطى فى التنبه إلى الظاهرة التى بنى عليها هذا العالم نظريته؛ فالجاحظ يقول: "وقد حدثنى صديق لى أنه حبس كلبه فى بيت وأغلق دونه الباب فى الوقت الذى كان طباخه يرجع فيه من السوق ومعه اللحم، ثم أحد سكينا بسكين فنبح الكلب ورام فتح الباب لتوهمه أن الطباخ قد رجع من السوق .. وهو يحد السكين ليقطع اللحم"(٢). غير أن الجاحظ لم يتوسع فى هذه الظاهرة ولم يستغلها الاستغلال الأمثل.

---

(١) المصدر السابق جـ٧ ص ٢١٨.

(٢) المصدر السابق جـ٢ ص١٢٠.

كما تنبه الجاحظ إلى ظاهرة نفسية توجد لدى الحيوان هى ظاهرة الحس بالزمن. وقد تظهر على نحو مرهف عند بعض الحيوانات كالديك مثلا. فالديك يطلق صياحا فى أوقات معينة من الليل يراعى فيها الدقة بحيث يمكننا أن نعرف كم مضى من الليل وكم بقى منه. ويقسم صيحاته على مدى الليل سواء طال أو قصر حتى إنه ليشبه الاسطرلاب(١). والأطرف من ملاحظة الجاحظ لهذه الظاهرة هو تساؤله عن علتها: فهل يصيح الديك لأنه ينكر شيئا يقترب منه كما يفعل الكلب؟ أو أنه يصيح لأنه يسمع صوتا شأنه شأن الكلب أيضا؟ جواب الجاحظ هو أنه يصيح (لشيء) فى طبعه. إذا قابل ذلك الوقت فى الليل هيجه، فعدد أصواته فى الوقت الذى يظن أنه تتجاوب فيه الديكة كعدد أصواته فى القرية وليس فى القرية ديك غيره"(٢) يصيح.

هذه هى ملاحظات الجاحظ فيما يتصل بعلم نفس الحيوان، وهو علم من مستحدثات علوم

---

(١) الجاحظ: الحيوان جـ٢ ص ٢٤١.

(٢) المصدر السابق جـ٢ ص ٢٥٢.

العصر، ولم يسبق إليه غير الجاحظ فيما نعلم. الأمر الذى يدل على عبقرية هذا الرجل وقوة إبداعه فى مجالات كثيرة والتى منها علم نفس الحيوان.

وهناك جانب آخر ينبغى لنا أن نناقشه لدى الجاحظ وهو أمر يتعلق بالكائنات الحية، وهو نظرية التطور العضوى والتى هى أيضا من النظريات الحديثة، فهى وليدة القرن التاسع عشر الميلادى، أى أن بينها وبين الجاحظ أكثر من عشرة قرون، مادام الجاحظ قد أظهر لنا ريادته فى علم الحيوان على النحو الذى سقناه سابقا.

ب ـ الجاحظ ونظرية التطور العضوى:

نظرية التطور العضوى من النظريات العلمية الحديثة، فهى بنت القرن التاسع عشر الميلادى. والتطور العضوى يعنى الاعتقاد بأن الحيوانات والنباتات تكونت من أشكال سبقتها نتيجة تحول تدريجى مستمر(١)، أو القول بأن جميع الكائنات الحية التى تعيش على الأرض قد نشأت من أصل واحد أو بضعة أصول، وأن التغيرات المختلفة التى

---

(١) الموسوعة العربية الميسرة بإشراف محمد شفيق غربال، القاهرة ص ٥٢٩.

حدثت لها قد جعلتها تتحول من كائنات بسيطة التركيب إلى أخرى أكثر تعقيداً (١) .

وهناك ثلاث نظريات تفسر التطور في العصر الحديث هي :

١- نظرية لامارك (١٧٤٤-١٨٢٩م) عن توارث الصفات المكتسبة Lamarks Theory of the Inheritance Aequired Charactrestics التي طرحها في كتابه فلسفة علم الحيوان .

٢- نظرية دارون عن الانتخاب الطبيعي Durwins Theory of Natural Selection والتي وضعها في كتابيه "أصل الأنواع" (١٨٥٩) و" تحدر الإنسان " الذي نشره (١٨٧١) .

٣- النظرية التركيبية الحديثة Modern Synthetic Theory وهي ليست من وضع عالم واحد وإنما هي من وضع مجموعة من العلماء بعد دارون .

---

(١) فاطمة محجوب ، دائرة معارف الشباب ، الطبعة الأولى ، القاهرة ص٥٢٩

وأى نظرية شاملة للتطور يجب أن تأخذ فى الاعتبار العوامل الداخلية Internal factors والعوامل الخارجية External Factors وتشمل العوامل الداخلية التوارث والاختلاف والتكاثر والتكوين، أما العوامل الخارجية فهى جميع الظروف البيئية التى تؤثر فى الأفراد والجماعات(١).

على أية حال تنسب نظرية التطور إلى "**تشارلز دارون**" وكتابه "أصل الأنواع"، وهو يلخص نظريته قائلا: "لا يمر بى خلجة شك فى أن ما كنت أقطع به كما قطع الطبيعيون من القول بأن كل نوع من الأنواع قد خلق مستقلا بذاته، خطأ محض. وإنى لعلى تمام الاعتقاد بأن الأنواع دائمة التحول، وأن الأنواع التى تلحق بما نسميه الأجناس اصطلاحا، هى أعقاب متسلسلة عن أنواع طواها الانقراض، على نفس الطريقة التى تعتبر بها الضروب لأى نوع أعقابا متسلسلة عن ذلك النوع ذاته. وإنى فوق ذلك لشديدالاقتناع بأن الانتخاب

---

(١) د/محفوظ عزام: نظرية التطور عند مفكرى الإسلام، دار الهداية القاهرة سنة ١٩٨٦ ص ١٩٥.

الطبيعي هو السبب الأكبر والمهيئ الأقوى لحدوث التحولات، ولو لم يكن السبب الأوحد الذى انفرد بإبرازها إلى عالم الوجود"(١).

ثم قال فى كتابه **"تحدر الإنسان"** أو "أصل الإنسان والانتخاب بالنسبة للجنس" إن الإنسان متطور عن نوع سابق له.

أما فيما يتعلق بالجاحظ فإننا يمكننا القول بأن الجاحظ لم يستعمل كلمة التطور، وإنما استعمل ألفاظا كالقلب والنقل والمسخ، قاصدا بها تغير الكائن من حال إلى حال أخرى. الأمر الذى يشم منه رائحة القول بالتطور العضوى. يؤيد هذا ما نجده عنده من فلسفة التصنيف؛ ومن الحديث عن تأثير البيئة والوراثة، والقول بالتهجين؛ بالإضافة إلى حديثه عن أصل بعض الحيوانات.

لقد فكر الجاحظ فى أصل الحياة، وقال بنظرية التولد الذاتى أو التلقائى، ومعناه أن بعض الحيوانات تتولد من مادة ليس فيها حياة، وذلك لما

---

(١) تشارلز دارون: أصل الأنواع، ترجمة إسماعيل مظهر، مكتبة النهضة بيروت ـ وبغداد، سنة ١٩٧٣ ص ١٢٢.

يلاحظه الناس من ظهور بعض الحيوانات فجأة، كخروج الضفدع من الطين "وتلك الضفادع إنما هى شيء يخلق تلك الساعة من طباع الماء والهواء والزمان وتلك التربة على مقادير ومقابلات"(١).

وهذا التولد كان يسمى عند فلاسفة العصر الوسيط بالتولد المشكك. ويضيف بعض الباحثين إلى التولد الذاتى مبدأ العلية وينسبه إلى أرسطو والفلاسفة الإسلاميين.

وكان لرأى الجاحظ فى أصل الحياة أثره فيمن جاء بعده من المفكرين والفلاسفة المسلمين كالفارابى وابن سينا وإخوان الصفا وابن طفيل. فقد فتح باب البحث لهم عن أصل الحياة. ويفترض العلماء المعاصرون أن الكائنات الحية على وجه الأرض قد تولدت فى البدء من جزئيات عضوية تجمعت فى الماء والطين لتكون أبسط الكائنات الحية(٢).

والحق أن بعض المعتزلة قد أسرف فى القول بالطبائع وأثرها فى الخلق إسرافا هو أشبه بأن يكون

---

(١) الجاحظ: الحيوان جـ١ ص ١٥٦.

(٢) د/أنور عبد العليم: قصة التطور، القاهرة ص ٥٩ وما بعدها.

مجاراة للدهريين فى فلسفتهم، واتباعا لمذهبهم، وللجاحظ كثير من ذلك يدل على متابعة المعتزلة سبيل الدهريين، أو على أنهم ـ على الأقل ـ كانوا لا يتأثمون من ذلك فهو يقول مثلا: "وقد أنكر ناس من العوام وأشباه العوام أن يكون شيء من الخلق كان من غير ذكر أو أنثى. وهذا جهل بشأن العالم، وبأقسام الحيوان. وهم يظنون أن على الدين من الإقرار بهذا القول مضرة. وليس الأمر كما قالوا. وكل قول يكذبه العيان، فهو أفحش خطأ وأسخف مذهبا وأدل على معاندة شديدة أو غفلة مفرطة وإن ذهب الذاهب إلى أن يقيس ذلك على مجاز ظاهر الرأى دون القطع على غيب حقائق العلل، فأجراه فى كل شيء، قال قولا يدفعه العيان أيضا. مع إنكار الدين له. وقد علمنا أن الإنسان يأكل الطعام ويشرب الشراب وليس فيهما حية ولا دودة فيخلق منهما فى جوفه ألوان من الحياة وأشكال من الديدان من غير ذكر وأنثى. ولكن لا بد لذلك الولاد واللقاح من أن يكون عن تناكح طباع، وملا قاة أشياء تشبه بطباعها الأرحام، وأشياء تشبه فى طبائعها ملقحات

الأرحام"(١).

ومهما يكن من خطأ هذا القول فى نظر العلم الحديث الذى يثبت أن الحى لا يأتى إلا من حى كما يقول "باستير"، فإن الذى يعنينا هو دلالته على أن بعض المعتزلة ـ والجاحظ منهم ـ كانوا يذهبون إلى أن خصائص المادة كافية فى إيجاد الكائن الحى، وأن وجود هذا الكائن ليس إلا نتيجة اجتماع هذه الخصائص والقوى. وما أشبه هذا بمذهب الفلاسفة الدهريين أو الطبيعيين!

أما فيما يتعلق بفلسفة التصنيف عند الجاحظ فإننا نجده يقسم الكائنات الحية إلى أنواع ورتب، وقد يوحى الترتيب والتقسيم بأن هذه الكائنات قد نشأت بوساطة التحور والتحول، كل من المرتبة التى تسبقه، ولكننا فى الواقع لا نستطيع أن نجزم بأن الجاحظ يقول بتحول الكائنات بالمعنى الذى ذهب إليه دارون بعد نحو عشرة قرون. وكل ما نستطيعه هو أن نقول إن التطور عند الجاحظ نوع من الترتيب والتقسيم والتصنيف يعتمد على أفضلية الكائنات

---

(١) الجاحظ: الحيوان جـ٣ ص ٣٦١ ـ ٣٦٢.

وشرفها دون أن نذهب إلى القول بأنه "داروني" فعلا.

فالجاحظ يقسم الكائنات النامية إلى حيوان ونبات؛ ويقسم الحيوان إلى ثدييات وطيور وأسماك وزواحف؛ ويقسم الثدييات إلى إنسان وبهائم وسباع وحشرات(١).

ثم يقسم الطير إلى ثلاثة أنواع، وكل نوع ينقسم إلى أنواع، وهناك من الطير ما هو مشترك بين نوعين. كما أن هناك من الحيوانات ما هو مشترك أيضا بين نوعين(٢).

وهو يقسم الحيوانات باعتبارات مختلفة، فيقسمه إلى فصيح وأعجم(٣). والفصيح هو الإنسان.

وقد كان للجاحظ أثره فيمن جاء بعده، كإخوان الصفا وغيرهم. حيث يقسم إخوان الصفا الحيوان إلى نتاج وتكوين(٤)، والنتاج من مماسة الأجسام بعضها ببعض، والتكوين من امتزاج الطبائع بعضها ببعض. وهناك تقسيم آخر للحيوان عندهم،

---

(١) الجاحظ: الحيوان، جـ١ ص ٢٧.

(٢) المصدر السابق، جـ١ ص ٢٨ ـ ٣١.

(٣) المصدر السابق، جـ١ ص٣٢.

(٤) إخوان الصفا: رسائل، طبعة سنة ١٣٠٥هـ مجلد٢، ص ٣٧٦.

حيث تنقسم إلى: تامة كاملة، وهى كل حيوان ينزو ويحبل ويرضع ويربى الأولاد، وناقصة وهى كل حيوان يسفد ويبيض ويفرخ، ومتولدة من العفونات، وهى كل حيوان لا يسفد ولا يبيض ولا يلد ولا يعيش سنة كاملة(١).

كما أنهم يرون أن الحيوانات الناقصة الخلقة متقدمة الوجود على التامة الخلقة بالزمان فى بدء الخلق، وذلك أنها تتكون فى زمان قصير، والتى هى التامة الخلقة تتكون فى زمان طويل(٢). وحيوان الماء وجوده قبل حيوان البر بزمان، لأن الماء قبل التراب والبحر قبل البر فى بدء الخلق، والحيوانات كلها متقدمة الوجود على الانسان بالزمان، لأنها لأجله، وكل شيء هو من أجل شىء آخر فهو متقدم الوجود عليه(٣).

ولقد عقد الجاحظ مقارنات عديدة تبين المشابهة التى بين الإنسان والحيوان، وبين الإنسان والطير فى الناحيتين: النفسية والتشريحية. فقد قارن

(١) المصدر السابق: مجلد٢ ص ١٢٨.

(٢) المصدر السابق: مجلد٢ ص ١٢٠.

(٣) المصدر السابق: مجلد٢، ص ١٢١.

بين الانسان والطير والحمام، وقارن بين الإنسان والقرد والفرس وبعض الحيوانات الأخرى. وهو يستدل من ذلك على وحدة الخلق ووحدة الخالق وقد اقتفى أثره في ذلك العديد من العلماء والمفكرين المسلمين من أمثال ابن قتيبة وابن طفيل والدميرى وابن عربى وغيرهم من العلماء والمفكرين.

والحق أن المشابهة لا تكفى دليلاً على أن الكائنات تطورت عن طريق التحول، وهى إن دلت على شيء فإنما تدل على وحدة الخلق ووحدة الخالق سبحانه وتعالى.

وقد أدرك ذلك الجاحظ بوعيه العلمى ومنطقه الإيمانى حيث إنه ينفى اتخاذ المشابهة دليلا على أصل الحيوان أو الطير بقوله "وإن كان الذى دعا إلى القول فى الزرافة أنهم جعلوا تركيب اسمه (اشتركا وبلنك) دليلا على تركيب الخلق، فالجاموس بالفارسية (كاو ماش) وتأويله ضأنى بقرى، لأنهم وجدوا فية مشابهة الكبش وكثيرا من مشابهة الثور، وليس أن الكباش ضربت فى البقر فجاءت الجواميس"(١).

(١) الجاحظ: كتاب الحيوان، جـ١ ص ١٥١ ـ ١٥٢.

وهناك ظاهرة تحدث الجاحظ عنها كثيرا وأكدها مرارا، وهى تأثير البيئة على الكائنات الحية بما فيها الإنسان. وهو بذلك سابق على إخوان الصفا وابن خلدون وغيرهم من القدماء والمحدثين الذين جاءوا بعده بقرون عديدة من أمثال لامارك ودارون والداروينيين الجدد.

فقد لاحظ الجاحظ أن للبيئة تأثيرا بالغا على الحيوان والإنسان، ولكن الإنسان أقوى على التكيف مع البيئة من الحيوان، ولا سيما إذا جيء به إليها صغيرا. وهو يعجب من كون "رجال الروم تصلح فى البدو مع الإبلِ، ودخول الإبل بلاد الروم هو هلاكها. فأما السند، فإن السندى صاحب الخربة إذا صار إلى البدو وهو طفل خرج أفصح من أبى مهدية ومن أبيِ مطرف الغنوى"(١).

إن تأثير البيئة واضح فى اللون، فالحيوان ينصبغ بلون البيئة، فإذا كانت سوداء غدا أسود اللون، وإذا كانت خضراء اخضر اللون. وإذا نقلته من بيئة إلى بيئة أخرى استحال لونه من لون إلى

---

(١) المصدر الساق، جـ٤ ص ٧١.

آخر: "وترى القملة فى رأس الشاب الأسود الشعر سوداء، وتراها فى رأس الشيخ الأبيض الشعر بيضاء، وتراها فى رأس شمطاء وفى لون الحمل الأورق، فإذا كانت فى رأس الخضيب بالحمرة، ترى حمراء فإذا نصل خضابه صار فيها شكلة بين بيض وحمر، وقد ترى حرة بنى سليم وما اشتملت عليه من إنسان وسبع وبهيمة وطائر وحشرة فتراها كلها سوداء"(١).

كما تؤثر البيئة فى شكل الإنسان الخارجى وهيئته حتى يبدو مسخاً من المسوخ له شعر طويل كالحيوان ووجه يشبه القرد فى قبحه، وذنب أو شبه ذنب كسائر الحيوانات، وذلك إذا عاش فى بيئة سيئة التربة والهواء والماء. يقول الجاحظ: "وقد خبرنا من لا يحصى من الناس أنهم قد أدركوا رجالا من نبط بيسان ولهم آذناب، أو عجوب طوال كالأذناب، وربما رأينا الملاح النبطى فى بعض الجعفريات على وجه شبه القرد، وربما رأينا الرجل فى المغرب فلا نجد بينه وبين المسخ إلا القليل.

---

(١) المصدر السابق نفسه.

وقد يجوز أن يصادف ذلك الهواء الفاسد والماء الخبيث والتربة الردية ناسا فى صنعة هؤلاء المغربيين ويكونون جهالا فلا يرتحلون ضنانة بمساكنهم وأوطانهم، ولا ينتقلون فإذا طال ذلك عليهم زاد فى تلك الشعور وفى تلك الأذناب وفى تلك الألوان الشقر وفى تلك الصور المناسبة للقرود(١).

كما يظهر تأثير البيئة فى الطباع أيضا، ويعطى الجاحظ على ذلك مثل العرب الذين كانوا أعرابا ثم انتقلوا إلى بلاد خراسان فتخلوا عن جميع أخلاق البادية. ويذكر كذلك مثل الزنوج والترك وكيف أن طبيعة بلاد كل منهم أثرت على طباعهم تأثيرا واضحا. وتأثير البيئة لا يحدث فجأة وإنما يحتاج إلى أزمان متطاولة(٢).

وإذا كانت العوامل الخارجية تؤثر فى الكائنات الحية فإن هناك ـ أيضا ـ عوامل داخلية لها أثرها، كالوارثة وغيرها. يقول الجاحظ: "وشر الطبائع ما تجاذبته الأعراق المتضادة، والأخلاق المتفاوتة،

---

(١) الجاحظ: الحيوان، جـ٤ ص٧٢، جـ٥، ص ٣٧٠.

(٢)المصدر السابق، ج٤ ص٧٠ ـ ٧١ والبيان والتبيين ج٤ ص ٦ـ ٧

والعناصر المتباعدة "(١) . ويقول في ظهور الخاصيات المتوارثة على قدر من العمر " أن الجعل يظل دهراً ولا جناح له ، ثم ينبت له جناحان ، وذلك عند هلكه . والدعاميص قد تغير حينا ثم تصير فراشاً وليس كذلك الجراد والذباب ، لأن أجنحتها تنبت على مقدار من العمر ومرور الأيام " (٢) .

ويتعلق بقانون الوراثة الذي تحدث عنه الجاحظ موضوع آخر أو مبدأ آخر هو في حقيقته طريقة أخرى لتنوع الكائنات الحية ، ذلك المبدأ هو التهجين (Hybridization) ، ويقصد بهذا المبدأ التزاوج بين فردين مختلفين في صفة وراثية واحدة أو أكثر ، بحيث ينشأ في النسل الهجين صفات وراثية جديدة مرغوبة ، تحقق الغاية المطلوبة ، ألا وهي التنوع الوراثي في الأنسال .

لقد تحدث الجاحظ عن " التهجين " ، وعبر عنه أحياناً بالخلق المركب ، وأخرى بالنتاج المركب ، وثالثة بالحيوانات المشتركة ، وطبق ذلك على العديد من الطيور والحيوانات (والبشر) .

---

(١) الجاحظ : كتاب الحيوان ، جـ١ ص١٠٢

(٢) المصدر السابق جـ٣ ص١٥٨

وقد سبق الجاحظ بهذا الحديث عن " التهجين " كل من جاء بعده من القدماء والمحدثين من أمثال " الدميري " و "القزويني" و" الحافظ الدمياطي " وأصحاب نظرية التطور الداروينية .

لاحظ الجاحظ أن الحيوان الجديد الذي يأتي من أبوين مختلفين يأتي أعظم من الأصل أحياناً ، كما هو الحال في البغل والحمام الراعبي " وقد وجدنا عزمول البغل أطول من عزمول الحمار والفرس والبرذون ، وهؤلاء أعمامه وأخواله ، فقد وجدنا بعض النتاج المركب وبعض الفروع المستخرجة أعظم من الأصل ، ووجدنا الحمام الراعبي أعظم من الورشان الذي هو أبوه ومن الحمامة التي هي أمه ، ولم نجده أخذ من عمر الورشان شيئا ، وخرج صوته من تقدير اصواتها ، كما خرج شحيج البغل من نهيق

الحمار وصهيل الفرس، وخرج الراعبى مسرولا ولم يكن ذلك فى أبويه، وخرج مثقلا سيء الهداية، وللورشان هداية وإن كان دون الحمام، وجاء أعظم جثة من أبويه، ومقدار النفس فى ابتداء هديله إلى منقطعه أضعاف مقدار هديل أبويه(١). ومن خصائص النتاج المركب أنه أطول عمرا من أصله كالحمر الوحشية الأخدرية(٢).

وعلى الرغم من هذا فإن النتاج المركب يبقى خاضعا للطبيعة لا يستطيع الإنسان أن يتحكم فيه. فهناك حيوانات مختلفة، لا يمكن أن يتولد من تسافدها حيوان جديد أو لا تتسافد من نفسها كالغنم والماعز(٣).

وهنا يميز الجاحظ بين الأمور الواقعية فى مجال التهجين وبين الخرافات والأباطيل التى كانت

---

(١) الجاحظ: الحيوان جـ١ ص ١٣٧ ـ ١٣٨.

(٢) المصدر السابق جـ١ ص ١٣٩.

(٣) المصدر السابق جـ١ ص ١٤٢.

تنتشر فى أيامه وتزعم أمورا وهمية غير صحيحة.

يقول الجاحظ: "وقد تجاسر ناس على توليد أبواب من هذا الشكل (ويقصد به التهجين بين أنواع حيوانية بعيدة بنسبها عن بعضها ولا يعقل أن تنتج نسلا) فادعوا أمورا، ولم يحفلوا بالتقريع والتكذيب عند مسألة البرهان، وقد زعموا أن الزرافة خلق مركب بين الناقة الوحشية والبقرة الوحشية والذيخ (وهو ذكر الضباع). ومثل هذه الأقوال لا يحققها الامتحان وما عندنا معرفة بها"(١). ويتشكك الجاحظ فى الأقوال حول تسافد الكلاب مع الثعالب، والثعالب مع الهرة الوحشية، ويفند هذه الأقوال ويسفهها، ويصف أهلها بأنهم ناقلون غير مدققين، ومقلدون غير مطبقين. ولم ينج أرسطو ـ فى نظر الجاحظ ـ من ارتكاب هذا الخطأ، فزعم أن أصنافا من السباع المتزاوجات المتلاقحات مع اختلاف الجنس والصورة معروفة النتاج مثل الذئاب التى تسقد

---

(١) الجاحظ: الحيوان جـ١ ص ١٨٩ وما بعدها.

الكلاب فى أرض رومية، كما أن الكلاب السلوقية تتولد من سفاد الثعالب والكلاب(١).

كما ينكر الجاحظ مزاعم الأعراب الذين يقولون إن الجن والناس يتلاقحون فينتج من ذلك خلق مركب. ولا ينسى الجاحظ النتاج المركب بين أعراق الناس الذى يأتى أجمل من أصله وأقوى كالخلاسى الذى يتخلق بين الحبش والبيضاء، فالعادة فيه أن يخرج أعظم من أبويه وأقوى من أصلية"(٢).

ومن الأمثلة على التهجين بين الأنواع الحيوانية التى ذكرها الجاحظ وهى فى الوقت نفسه مطبقة فعلا فى الوقت الحاضر:

١ ـ التزاوج بين الحمير والخيل؛ فإذا كانت الأم فرسا أنتجت لنا بغلا كبيراً لكبر رحم أمه فهو شبيه بها وإذا كانت الأم "أتانا" أنتجت لنا "تغلا" فهو أشبه بأمه الحمارة، وهو صغير الحجم(٣).

---

(١) المصدر السابق جـ١ ص ١٨٣ ـ ١٨٥.

(٢) المصدر السابق جـ١ ص ١٥٧.

(٣) الجاحظ: رسائل، تحقيق عبد السلام هارون، الخانجى سنة ١٩٦٥ جـ٢ ص ٢٩٧ وقارن: القزوينى: عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ص ٣٠٧.

٢ ـ التزاوج بين الورشان والحمامة، يعطى الحمام الراعبى(١) "الذى ذهبت عنه هداية الحمام وشكل هديره وسرعة طيرانه، وبطل عنه عمر الورشان وقوة جناحه، وشدة عصبه، وحسن صوته، وشحو (اتساع) حلقه، وشكل لونه، وشدة إطرابه .. وفى الراعبى أنه مسرول مثقل، وحدث له عظم بدن وثقل وزن، لم يكن لأبيه و لا لأمه"(٢). فهو لم يأخذ من هداية أمه شيئا ولم يعطه أبوه من طول عمره شيئا.

٣ ـ التزاوج بين فوالج البخت مع إناث البخت يعطى الحوار. وهى القصيرة العنق التى لا تنال كلأ ولا ماء إلا بمساعدة صاحبها. والبخت هى الإبل الخراسانية التى تنتج من عربية، وفالج هو الجمل الضخم ذو السنامين ويوجد فى "كازاخستان" وصحارى "تركمانستان". والتزاوج بين فوالج البخت وقلاص العرب يعطى "الجواميز" أو الجمازات(٣) (العراب نوع ممتاز من الإبل العربية،

---

(١) الجاحظ: الحيوان جـ١ ص ١٠٢، ١٠٣، ١٣٧، ١٣٨. وقارن: ابن قتيبة: عيون الأخبار مجلد ٢ ص٧٠.

(٢) الجاحظ: الحيوان جـ١ ص ١٠٢.

(٣) المصدر السابق جـ٥ ص٤٥٩.

والجواميز إبل ممتازة أيضا).

٤ ـ التزاوج بين الكلاب السلوقية وكلب الراعى يعطى الخلاسى(١).

هذا، ويرى الجاحظ أن "البغل" هو أكمل أشكال التهجين، وأنه عقيم، لا يلد. كما يرى أن "الزرافة" نوع من الحيوان قائم بنفسه كقيام الخيل والحمير، ومما يحقق ذلك أنه يلد مثله، وقد شوهد ذلك وتحقق.

ومن الظواهر التى لاحظها الجاحظ وتتصل بقضية التطور هى الشبه بين القرد والإنسان. فالجاحظ يذكر أوجه الشبه بين القرد والإنسان فى المظهر والحركات وكيفية تناول الطعام وتغميض عينيه والضحك وشكل الكف والأصابع، وفى التقليد والمحاكاة وقابلية التعلم والسباحة، حيث يقول: "وقد عرفت شبه باطن الكلب بباطن الإنسان، وشبه ظاهر القرد بظاهر الإنسان: ترى ذلك فى طرفه وتغميض عينيه، وفى ضحكه، وفى حكايته، وفى كفه وأصابعه، وفى رفعها ووضعها، وكيف يتناول بها، وكيف يجهز اللقمة إلى فيه، وكيف يكسر الجوز

---

(١) المصدر السابق جـ١ ص ٣١١ ـ ٣١٢.

ويستخرج لبه، وكيف يلقن ما أخذ به وأعيد إليه، وأنه من جميع الحيوان إذا سقط فى الماء غرق مثل الإنسان، ومع اجتماع أسباب المعرفة يغرق إلا أن يكتسب معرفة السباحة..(١).

ويختلف الجاحظ عن دارون، حيث يقول الجاحظ بالتطور الهابط أو النازل، نحو الأردأ أو الأحط وهو ما أطلق عليه اسم المسخ.

بينما يقول دارون بالتطور الصاعد الذاهب نحو الأرقى والأصلح. فالإنسان عند الجاحظ هو الذى انقلب إلى قرد وليس القرد هو الذى ارتقى إلى مرحلة الإنسانية(٢).

ويرى الجاحظ أن العوامل التى آلت إلى هذا التطور النازل أو المسخ هى البيئة التى أثرت فى الإنسان وأحالته إلى قرد بسبب رداءتها وفساد هوائها وخبث مائها(٣). ولكن هذا التطور ربما تم بالطفرة أى دفعة واحدة، وربما استغرق دهورا طوالا(٤). وهذا التطور صحيح طالما أنه لا يخالف الطباع(٥).

إن ما يؤكد قرابة القرد والإنسان عند الجاحظ ليس فقط الظاهر الذى تحدثنا عنه أو الصفات

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣١٥ .
(٢) الجاحظ: الحيوان جـ٤ ص ٩٩.
(٣) المصدر السابق: جـ٤ ص ٧٢، والدلائل والاعتبار ص٣٣ ـ ٣٤.
(٤) الجاحظ: الحيوان جـ٤ ص٧٣.
(٥) المصدر السابق جـ٤ ص٧٣.

الخارجية وإنما أيضا الباطن أو الناحية النفسية. ويشير الجاحظ إلى الشبه بين القرد والإنسان فى خصلتين كريمتين هما الزواج والغيرة الجنسية قائلا: "واجتمع فى القرد الزواج والغيرة وهما خصلتان كريمتان واجتماعهما من مفاخر الإنسان على سائر الحيوان. ونحن لم نر وجه شيء غير الإنسان أشبه صورة وشبها على ما فيه من الاختلاف، ولا أشبه فما ووجها بالإنسان من القرد"(١).

وهكذا يتضح لنا من خلال حديث الجاحظ عن الحيوان أنه يشبه سلوك الحيوان بسلوك الإنسان، وأنه يعطى للحيوان وعيا شبيها بوعى الإنسان، وأنه ينظر إلى الحيوان نظرة غائية، أى أنه يعطى لسلوك الحيوان غاية إنسانية وهدفا محددا بوعى(٢)، الأمر الذى يدل على مدى عمق وعى الجاحظ وأصالته العلمية، وريادته فى العلوم التى هى من مستحدثات علوم العصر الحديث.

وقد آن لنا أن نتحدث عن الإنسان عند الجاحظ، فما هو الإنسان، وما مفهومه، وما العقل، وما النفس اللذان للإنسان؟ وهل عند الجاحظ نزعة إنسانية؟

---

(١) المصدر السابق جـ٤ ص ٩٨.

(٢) موريس روكلن: تاريخ علم النفس، ترجمة على زيعور، دار الأندلس بيروت ١٩٧٨ ص ٤٩ وما بعدها.



الفصل السادس

الإنسان عند الجاحظ



أ ـ ما الإنسان؟

لقد حاول الجاحظ الإجابة عن هذا السؤال قائلا بأن الإنسان عالم صغير، تشبيها له بالعالم الكبير"أو ما علمت أن الإنسان الذى خلقت السموات والأرض وما بينهما من أجله، كما قال عز وجل: ﴿**سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه**﴾؛ إنما سموه بالعالم الصغير سليل العالم الكبير، لما وجدوا فيه من جميع أشكال ما فى العالم الكبير، ووجدنا له الحواس الخمس، ووجدوا فيه المحسوسات الخمس، ووجدوه يأكل اللحم والحب، ويجمع بين ما تقتات البهيمة والسبع، ووجدوا فيه صولة الجمل ووثوب الأسد وغدر الذئب، وروغان الثعلب .. وسموه العالم الصغير لأنهم وجدوه يصور كل شيء بيده، ويحكى كل صوت بفمه. وقالوا: لأن أعضاءه مقسومة على البروج الإثنى عشر والنجوم السبعة، وفيه الصفراء وهى من نتاج النار، وفيه السوداء وهى من نتاج الأرض، وفيه الدم وهو من نتاج الهواء، وفيه البلغم وهو من نتاج الماء .. فجعلوه العالم الصغير، إذ كان فيه جميع أجزائه وأخلاطه وطبائعه"(١).

---

(١) الجاحظ: الحيوان جـ١ ص ٢١٢ ـ ٢١٣.

فالإنسان عند الجاحظ هو العالم الصغير سليل العالم الكبير، لأنه يصوّر بيديه كل صورة، ويحكى بفمه كل حكاية، ولأنه يأكل النبات كما تأكل البهائم، ويأكل الحيوان كما تأكل السباع، وأن فيه من أخلاق جميع أجناس الحيوان أشكالا(١) وأن جسمه يتكون من العناصر التى يتكون منها العالم وهى النار والتراب والماء والهواء.

ويأخذ الجاحظ بتعريف أرسطو للإنسان فيقول: "حد الإنسان: الحى الناطق المبين"(٢). فالعقل والقدرة على التفاهم بالكلام أهم ميزة ميز الله بها الإنسان على الحيوان وبه يعبر عن حاجاته. ومن هنا يبدو الإنسان للجاحظ حيوانا، ولكنه حيوان عاقل وناطق. ولذا كثيرا ما يلجأ الجاحظ للمقابلة بين الإنسان والحيوان؛ فيلاحظ ـ مثلا ـ أن الجهاز الهضمى متشابه عند الإنسان والكلب(٣). كما يلاحظ الجاحظ شبها قويا بين الإنسان والقرد فى المظهر الخارجى وبعض الصفات النفسية الباطنة. ولكن مع ذلك يبقى الفرق ماثلا بين الإنسان والحيوان، وهو

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين جـ١ ص ٧٠.

(٢) الجاحظ: الحيوان جـ٧ ص ٤٩ والبيان والتبيين جـ١ ص ٧٧.

(٣) المصدر السابق جـ٢ ص ٢١٥.

فرق كبير وليس فرقا فى الدرجة وإنما هو فرق فى النوع أيضا، وذلك "لما أعطى الله الإنسان من الاستطاعة والتمكين، وحين فضله على جميع الحيوان بالمنطق والعقل والاستطاعة"(١). ومن أجل هذا نجد الجاحظ يرتب المخلوقات بحسب حظها من العقل، فأعلى الخلق منزلة الملائكة، ثم الإنسان، ثم الجن "وإنما صار لهؤلاء المزيّة على جميع الخلق بالعقل، وبالاستطاعة على التصرف، وبالمنطق"(٢).

غير أن هذا لا يعنى أن الحيوان يخلو من المعرفة والقدرة على التعلم. فالجاحظ لا يفتأ يوضح هذه الظاهرة المدهشة عند الحيوان، وهى وجود المعارف الدقيقة الغريبة عنده. والفرق بين معارف الإنسان والحيوان هو أنها وليدة الغريزة عند الحيوان بينما هى وليدة الفكر عند الإنسان. يدل على ذلك أن الحيوان قد يعلم علما رائعا ويصنع بكفه صنعة قد يتفوق بها على الإنسان، ولا يهتدى إلى ما دون ذلك بطبع أو روية. والجاحظ يشرح فكرته بقوله: "قد قلنا فى أول هذا الجزء من القول فى الحيوان فى إحساس أجناسها المجعولة فيها وفى معارفها المطبوعة

(١) الجاحظ: البيان والتبيين جـ١ ص٧٠.

(٢) المصدر السابق جـ١ ص ١٧٠.

عليها، ومن أعاجيب ما ركبت عليه من الدفع عن أنفسها والتقدم فيما يحييها وفي تحسسها عواقب أمورها وكل ما خوفت من حوادث المكروه بقدر ما ينوبها من الآفات ويعتربها من الحادثات، وإنها تدرك ذلك بالطبع من غير روية، وبحس النفس من غير فكرة، ليعتبر معتبر ويفكر مفكر، ولينفي عن نفسه العجب ويعرف مقداره من العجز ونهاية قوته .. والإنسان ذو العقل والاستطاعة والتصرف والروية إذا علم علما غامضا وأدرك معنى خفيا لم يكد يمتنع عليه ما دونه إذا قاس بعض أمره على بعض. وأجناس الحيوان قد يعلم بعضها علما ويصنع بكفه صنعة يفوق بها الناس ولا يهتدى إلى ماهو دون ذلك بطبع ولا روية، وعلى أن الذى عجز عنه في تقدير العقول دون الذى قدر عليه"(١).

فالغريزة عند الحيوان تعمل إذن بدقة ولكن دون روية ووعى، بينما عقل الإنسان يعمل بروية وفكر وقياس ولكن بدقة أقل.

هذا ويرى الجاحظ أن آدم هو أصل البشر أجمعين(٢).

---

(١) الجاحظ: الحيوان جـ٧ ص ٧١ ـ ٧٢.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين جـ٣ ص ٢٠٤.

ب ـ العقل عند الجاحظ:

العقل هبة من الله عز وجل منحها للإنسان ليكون أداة للتفكير والاعتبار وبذلك تميز الإنسان على سائر الحيوانات. يقول الجاحظ متسائلا: "فلم أعطاه العقل؟ إلا للاعتبار والتفكير؟"(١).

ويبحث الجاحظ عن مكان العقل فى الإنسان، ولكنه يتأرجح فى ذلك بين رأيين: رأى يقول إن مركزه الدماغ والقلب طريق له، وآخر يقول إن القلب مركزه دون الدماغ(٢).

والإنسان يعلم، بوساطة العقل، الأشياء والظواهر التى تلتقطها الحواس، ولا تفقه سرها، ولكنه لا يعلم كيفية حدوث هذا العلم. ويعبر الجاحظ عن هذه الفكرة بقوله: "وأنا، جعلت فداك، أعلم أنى أسمع ولا أعقل كيفية السمع، وأعلم أنى أبصر ولا أعقل كيفية البصر"(٣). ويميز المرء، بوساطة العقل، بين الكلام الجميل والقبيح وبين الخير والشر، وبهذا يشبه العقال الذى يعقل البعير أو يمنعه من

---

(١) الجاحظ: الحيوان جـ٧ ص ٥٤٣.

(٢) الجاحظ: رسالة التربيع والتدوير ص ٨٦.

(٣) المصدر السابق ص ٨٦.

الشرود(١).

ومن هنا يصبح العقل وسيلة الرؤية الباطنية للأشياء على عكس الحواس التى تمد الإنسان بالرؤية الخارجية. ومن ثم كان العقل أعلى مرتبة وأثبت حجة ووجب الركون إليه أكثر من الحواس "فلا تذهب الى ما تريك العين، واذهب إلى ما يريك العقل. وللأمور حكمان: حكم ظاهر للحواس وحكم باطن للعقول، والعقل هو الحجة"(٢) فالعقل حاكم على الحس فى رأى الجاحظ.

ولكن كيف يقوم العقل بعمله؟ إن عمل العقل يسمى التفكير، والتفكير يؤدى إلى المعرفة وفهم الحقائق، وأهم طرق التفكير الحدس والقياس. وقد عبر الجاحظ عن هذا بقوله: " سئل بعض الأعراب عن العقل، قال: الإصابة بالظنون ومعرفة ما لم يكن بما قد كان"(٣).

---

(١) الجاحظ: رسالة كتمان السر وحفظ اللسان ضمن رسائل الجاحظ جـ١ ص ١٤١.

(٢) الجاحظ: الحيوان جـ١ ص ٢٠٧.

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين جـ٤ ص ١٢٩.

وقد يتساءل الإنسان: متى يوجد العقل فى الإنسان؟ وهل يولد معه أم يكتسب اكتسابا؟ يجيب الجاحظ: إنه ملكة تولد مع صاحبها. فقد "قيل لرجل من الحكماء: متى عقلت؟ قال: ساعة ولدت. فلما رأى إنكارهم لكلامه قال: أما أنا فقد بكيت حين خفت، وطلبت الأكل حين جعت، وطلبت الثدى حين جعت، وسكت حين أعطيت"(١).

والعقل، على الرغم من أنه يولد مع الطفل، إلا أنه يحتاج إلى تعهد ومعالجة وتربية لكى ينمو ويقوى. وإذا أهمل ضعف وانحرف وأصيب بالعلل، وعندئذ يصعب تقويمه ويعضل علاجه. إن العقل فى نظر الجاحظ "أطول رقدة من العين، وأحوج إلى الشحذ من السيف، وأفقر إلى التعهد وأسرع إلى التعبير، وأدواؤه أقتل وأطباؤه أقتل وعلاجه أعضل"(٢).

ويرى الجاحظ أن الحرية مبدأ مهم لابد من توافره حتى يستطيع العقل القيام بعمله على الوجه الأكثر فائدة. ويعبر عن هذا المبدأ المهم بقوله:

---

(١) الجاحظ: الحيوان جـ٧ ص ٥٦.

(٢) الجاحظ: رسالة التربيع والتدوير ص ١٠١.

"إن العقل إذا أكره عمى"(١). فالإنسان إذا حرم من جو الحرية وجثم على عقله الإكراه والاستبداد انشل تفكيره. وإذا فكر جاء تفكيره معوجا ومنحرفا وغير مستقيم.

والحق أن الجاحظ ـ بإقراره لمبدأ الحرية العقلية والفكرية ـ يكون رائدا لمعركة حرية الفكر التى تدور رحاها اليوم فى العالم سابقا بذلك عصره ومؤكدا على أن الحرية بالنسبة إلى العقل كالنور بالنسبة إلى العين.

على أن الجاحظ يميز بين نوعين من العقل: هما العقل الغريزى المطبوع، والعقل المكتسب. وبهذا التمييز يكون سابقا على الفلاسفة المسلمين الذين أتوا بعده، من أمثال الفارابى وابن سينا وابن رشد. إن العقل الأول يولد مع الإنسان ويشكل غريزة أو استعدادا طبيعيا، أما العقل الثانى فإنه يتكون من التجارب التى يمر بها الإنسان فى حياته ويكتسب بالتعلم والتثقيف. أما العلاقة بينهما فهى أشبه بعلاقة الآلة بالمادة التى تستخدمها فى أداء وظيفتها. العقل الغريزى يشبه المصباح والعقل المكتسب يشبه الدهن: المصباح هو الآلة والدهن هو

---

(١) الجاحظ: الحيوان جـ٤ ص ٤٥٢ .

المادة. يقول الجاحظ: "وقد أجمعت الحكماء أن العقل المطبوع والكرم الغريزى لا يبلغان غاية الكمال إلا بمعاونة العقل المكتسب، ومثلوا ذلك بالنار والحطب، والمصباح والدهن. وذلك أن العقل الغريزى آلة والمكتسب مادة، وإنما الأدب عقل غيرك تزيده فىعقلك"(١).

ولعل الجاحظ يقصد بهؤلاء الحكماء فلاسفة اليونان وبخاصة أرسطو الذى ميز بين عقل بالقوة، وعقل بالفعل أو بالملكة، وعقل فعال. وقد تبنى الفارابى هذا التقسيم الوارد عند أرسطو، حيث يرى أن العقل بالقوة هو العقل الهيولانى، وهو هيئة ما فى مادة معدة لأن تقبل صور المعقولات. ومتى حصلت المعقولات فى العقل بالقوة يصبح عقلا بالفعل بعد أن كان عقلا بالقوة. والعقل الفعال هو الذى ينقل العقل بالقوة إلى عقل بالفعل، وهذا العقل الفعال هو ذات ما، جوهره عقل ما بالفعل ومفارق للمادة. ومنزلة العقل الفعال من العقل الهيولانى كمنزلة الشمس من

---

(١) الجاحظ: رسالة المعاد والمعاش، ضمن رسائل الجاحظ جـ١ ص ٩٦.

البصر. ومرتبة العقل الفعال من الأشياء المفارقة المرتبة العاشرة(١)، بحسب نظرية الفيض.

ويلاحظ أن الفارابى قد جعل العقل الفعال خارج النفس، وهذا مالم يقل به أرسطو(٢). ولم يوضح العلاقة بين العقل بالقوة والعقل بالفعل على النحو الذى أوضحه الجاحظ، بل قال إن العقل بالفعل هو العقل بالقوة ذاته بعد حصول المعقولات فيه. ولعل ابن سينا قد نظر إلى التشبيه الذى ورد عند الجاحظ ولكنه لم يأخذ به، وإنما أخذ بالتشبيه الوارد فى الآية القرآنية الكريمة: ﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح فى زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار﴾(٣).

وجعل العقل بالقوة أو العقل الهيولانى قوة

---

(١) الفارابى: آراء أهل المدينة الفاضلة، دار المشرق بيروت ١٩٧٣ ص ٦٢، ١٠١ ـ ١٠٢.

(٢) ابن رشد: تلخيص كتاب النفس لأرسطو، النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٠ ص ٨٥.

(٣) سورة النور، الآية ٣٥.

من قوى النفس مستعدة لقبول المعقولات وشبهه بالمشكاة. النفس مستعدة لقبول المعقولات وشبهه بالمشكاة. وجعل العقل بالفعل قوة أخرى فى النفس قد حصلت فى المعقولات المكتسبة وشبهه بالمصباح. وبين العقل الهيولانى والعقل بالفعل يوجد العقل بالملكة وهو الذى لا توجد فيه سوى المعقولات الأولى وشبهه بالزجاجة الشريفة. أما العقل الفعال فهو الذى يخرج العقل بالقوة إلى عقل بالملكة وعقل بالفعل وقد شبهه بالنار(١).

والحق أن نظرة الجاحظ إلى العقل تعد أكثر واقعية من نظرتى الفارابى وابن سينا؛ إذ ليس فى الإنسان سوى عقل واحد، ولا يوجد خارجه أى عقل على الإطلاق.

هذا ويرى الجاحظ أن عقول معظم الناس متقاربة، إلا فيما ندر، حيث نجد بعض الأفراد ترجح عقولهم على الآخرين. وهو بهذا سابق على الفليسوف الفرنسى "ديكارت" الذى كان يرى أن العقل أعدل الأشياء قسمة بين الناس بالتساوى. يقول

---

(١) ابن سينا: الإشارات والتنبيهات، دار المعارف بمصر، ١٩٦٠ جـ٢ ص ٣٦٣ ـ ٣٦٧ .

الجاحظ: "وذكر صالح بن سليمان، عن عتبة بن عمر بن عبد الرحمن بن الحارث قال: "ما رأيت عقول الناس إلا قريبا بعضها من بعض إلا ما كان من الحجاج بن يوسف، وإياس بن معاوية فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس كثيرا"(١).

جـ - النفس الانسانية عند الجاحظ:

بتواضع العالم يقر الجاحظ بأن مصادره عن النفس قليلة، وأنه لم يقرأ عن هذا الموضوع المجلدات الكثيرة، كما نراه يهاجم المتكلمين الذين بحثوا موضوعها واتهمهم بالفضول والجهل بأنهم يريدون أن يعلموا كل شيء ويأبى الله ذلك(٢).

وهناك رأى طريف في النفس ينسبه الجاحظ إلى متكلم جليل رئيس، يثير لديه الاستغراب والدهشة، خلاصته أن النفس من جوهر النسيم أو الهواء، وأن النفوس المتفرقة في الأجرام الحيوانية ليست سوى أجزاء من النسيم. وحكم النفوس في علاقتها مع الهواء الخارجى الذى يملأ الفضاء حكم

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين جـ١ ص ٩٩ - ١٠٠.

(٢) الجاحظ: الحيوان ج ٤ ص ٣١٩ .

الأشعة المنبثقة عن قرص الشمس وهذه النفوس تغادر الأجسام وتنقطع إلى أصلها أي الهواء إذا سدت منافذ الجسم كما ينقطع الضوء بالطفرة إلى عنصره من قرص الشمس إذا سدت الكوة التى ينفذ منها الشعاع إلى داخل المكان(١).

ويبدو أن هذا المتكلم الجليل الرئيس هو "النظام" على الأرجح لأنه صاحب نظرية الطفرة، ولأن هذا التشبيه القائم على علاقة الشعاع بقرص الشمس قد عزاه الجاحظ إلى النظام في معرض الكلام عن كمون النار، وليست هذه هي المرة الأولى التى يخالف فيها الجاحظ أستاذه، فلقد عارضه في آراء كثيرة .

والحق أن هذا الرأى يجعل النفس جوهرا ماديا، ويلتقى فيه مع صاحبه "ديموقريطس" الذى قال إن النفس مؤلفة من أدق الجواهر وأسرعها حركة، وهذه الجواهر منتشرة في الهواء يدفعها إلى الأجسام فتتغلغل في البدن كله وتتجدد بالتنفس في كل آن، وتدوم الحياة ما دام التنفس.

ويستعمل الجاحظ كلمة "نفس" بمعنى الذات

---

(١) المصدر السابق ج ٥ ص ١١٢ ـ ١١٣ .

في قوله: "إن الظربان إذا أراد أن يأكل حسلة الضب، والضب نفسه، اقتحم جحر الضب مستدبرا"(١).

كما يستعملها بمعنى القوة الشهوانية طبقا لما جاء في قول الحسن البصرى: "أقعدوا هذه النفوس فإنها طلعة، واعصوها فإنكم إن أطعتموها تنزع بكم شر غاية، وحدثوها بالذكر فإنها سريعة الدثور"(٢).

والنفس عند الجاحظ هي مركز الحاجات التى يشعر بها الانسان، كالحاجة إلى الغذاء، والحاجة إلى الطمأنينة، والحاجة الىالجنس، والحاجة إلى اليقين والمعرفة. وفي النفس قوى تعمل على تلبية هذه الحاجات(٣).

إن أهم قوى النفس هى الإحساس والعقل والذاكرة والنطق، يقول الجاحظ: "تأمل هذه القوى التى في النفس وموقعها من الإنسان، أعنى الفكر والوهم والعقل والحفظ وسائر ذلك.. فكر فيما أنعم الله على الإنسان من هذا المنطق الذى يعبر به عما

---

(١) المصدر السابق جـ ٦ ص ٤٨ .

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين جـ ١ ص ٢٠٠ .

(٣) الجاحظ: الحيوان جـ ١ ص ١٠٨ ـ ٢١٤ .

يضمره ويفهم عن غيره ما في نفسه، ولولا ذلك كان بمنزلة البهيمة التى لا تخبر عن نفسها بشيء ولا تفهم عن مخبر شيئا"(١).

والجاحظ يجعل الحواس خمسا، شأنه في ذلك شأن القدماء من الفلاسفة اليونان وهي: البصر والسمع والشم والذوق واللمس، إلا أن الجاحظ يتوقف عند فكرة مهمة وهي تخصيص الحواس بالمحسوسات بحيث يقصر كل حاسة على محسوس معين تعمل فيه ولا تستطيع أن تتعداه إلى محسوس آخر. وهو يقطع بأنه لا يمكن أن تكون في العالم أشياء لا ندركها بالحواس "لأنها إذا وجدت، تكون فضلا لا معنى له، وليس في الخلقة شيء لا معنى له"(٢).

ويشير الجاحظ إلى قانون عتبة الإحساس أو الحد الذى ضمنه تقوم الحواس بعملها فتدرك المحسوسات، فإذا تجاوزت هذا الحد لم تعد تدرك. وهذا هو ما عبر عنه الجاحظ بقوله: "إن لكل حاسة قوة، فإذا امتلأت تلك القوة من محسوسها، لم تجد

---

(١) الجاحظ: الدلائل والاعتبار ص ٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٧ ـ ٤٨ .

وراءها طعما ولا ريحا، وعاد عليها بالضرر. فبعض النظر يعمى، والصوت الشديد يصم، والرائحة المنتنة تبطل الشم، والأطعمة الحارة المحرقة تبطل حاسة اللسان"(١).

ويرى الجاحظ أن الحواس جنس واحد، فحاسة البصر من جنس حاسة السمع وسائر الحواس، لأن النفس هي المدركة وإدراكها يتم من خلال هذه النوافذ التى تسمى بالحواس.

ولكن لماذا اختلفت الحواس فصار واحد منها سمعا والآخر بصرا والثالث شما؟ وهكذا. يجيب الجاحظ على ذلكِ بأن اختلاف الحواس إنما يرجع إلى ما مازجها من الموانع أو الشوائب، فمثلا لا يدرك البصر الأصوات لأن شائبه من جنس الزجاج الذى يمنع من درك الصوت ولا يمنع من درك اللون.

ويفرق الجاحظ بين ثلاثة أنواع من المحسوسات؛ فهناك محسوسات متضادة كالسواد والبياض، ومحسوسات مختلفة كالطعم واللون،

---

(١) الجاحظ: رسالة كتمان السر وحفظ اللسان، ضمن رسائل الجاحظ جـ ١ ص ١٤١ .

ومحسوسات متفقة(١).

وهناك جانب مهم يتعلق بالنفس عند الجاحظ؛ هذا الجانب هو القدرة الفائقة التى تمتع بها الجاحظ على تحليل النفس الانسانية. تلك القدرة التى نراها في أماكن عديدة من كتبه ورسائله. ففي كتاب البخلاء ـ مثلا ـ يصف الجاحظ دوافع البخل والجود عند الناس، فيعمد إلى سرد نوادر وأخبار عديدة عن الأشحاء تصف حركاتهم وتصرفاتهم وطرائق تفكيرهم، ومشاعرهم، ومختلف الحيل التى يلجأون إليها لجمع المال ومنعه، وكيف ينظرون إلى الأمور ويحكمون عليها. ويلجأ الجاحظ إلى طريقة أخرى غير النوادر والأخبار لتصوير نفسية البخلاء، وهي الاحتجاجات التى تعكس مناهج التفكير عند هؤلاء الناس. وهو يعزو هذه الاحتجاجات إلى مفكرين مشهورين من أمثال الفيلسوف الكندي وسهل بن هارون وغيرهم. ونجده في رسالة أخرى يصف ذلك الصراع الذى يعتمل في نفس الانسان بين الهوى

---

(١) الأشعري: مقالات الاسلاميين، النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٩، ج ٢ ص ٣٣ ـ ٣٤.

الذى يدفعه إلى إذاعة السرّ، والعقل الذى يصده عن ذلك، فيقول: "إنه لا شيء أصعب من مكابدة الطبائع ومغالبة الأهواء، فإن الدولة لم تزل للهوى على الرأى طوال الدهر. والهوى هو الداعية إلى إذاعة السرّ، وإطلاق اللسان بفضل القول"(١).

والعقل إنما سمى عقلا ـ كما يقول الجاحظ ـ لأنه يقيد اللسان ويعقله عن الجهر بالكلام المضر كما يحجر عن الصغير وكما يعقل البعير. وهو يشبه اللسان بالترجمان عن القلب، ويشبه القلب بالخزانة التى تحفظ الأسرار وتصونها، وتختزن ما يعيه الإنسان من الحواس من خير وشر وما تولده الشهوات والأهواء وما تنتجه المعارف والعلوم.

ولكن القلب ينزع إلى التخلص مما فيه والإفضاء به: "وكأنه يضيق بما ينطوى عليه ويستثقل ما حمل منه، فيستريح إلى نبذه ويلذ إلقاءه على اللسان، ثم لا يكاد أن يشفيه أن يخاطب به نفسه في خلواته حتى يفضى به إلى غيره ممن لا يرعاه ولا يحوطه. كل ذلك ما دام الهوى مستوليا على

---

(١) الجاحظ: رسالة كتمان السر وحفظ اللسان، ضمن رسائل الجاحظ، جـ ١ ص ١٤١ .

اللسان، فإذا قهر الرأى الهوى فاستولى على اللسان، منعه من تلك العادة ورده عن تلك الدربة وجشمه مؤونة الصبر على ستر الحلم والحكمة"(١).

إن اللسان في حد ذاته ليس سوى أداة للتعبير عن الضمير، فهو لا يستحق المدح أو الذم، وإنما الحمد للحلم واللوم على الجهل. وهكذا يكون الحلم الاسم الجامع لكل فضل، وهو سلطان العقل القاهر للهوى وتداعياته.

إن ميل الانسان إلى الإفضاء بما يزخر به صدره من الأخبار شيء طبيعي فطر عليه، ومن هنا كانت حلاوة الأخبار والاستخبار عند الناس وهذا هو أساس ما جبل عليه البشر من نقل الأخبار عن الماضين إلى الباقين، وعن الغائبين إلى الشاهدين. وبهذا "ثبتت حجة الله على من لم يشاهد مخارج الأنبياء، ولم يحضر آيات الرسل، وقام مجيء الأخبار عن غير تشاعر ولا تواطؤ مقام العيان، وعرفت البلدان والأقطار"(٢).

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٤١ ـ ١٤٢ .

(٢) الجاحظ: رسالة كتمان السر وحفظ اللسان، ضمن رسائل الجاحظ جـ ١ ص ١٤٣ ـ ١٤٤ .

ومن هنا فقد عسر على الإنسان كتمان السر بسبب طبيعته هذه، حتى ليغشاه الحزن والهم من كتمان السر، ويعتريه كمد وسقم يحس به في سويداء قلبه يشبه دبيب النمل وحكة الجرب ولسع الدبر. ومما يؤيد هذا الرأى ما يروى عن الأعمش (١٨٨هـ) المحدث المعروف أنه كان لضيق صدره بما فيه من الأخبار، وعدم قدرته على البوح بها يقبل على شاة كانت له، فيحدثها بالأخبار والفقه حتى كان بعض أصحاب الحديث يقول: "ليت أنى كنت شاة الأعمش"(١).

ونجد تلك القدرة على تحليل النفس الإنسانية، والحرص على كشف أعماق الإنسان في رسالة أخرى للجاحظ، حيث يعقد أبو عثمان مقارنة بين هذين الميلين من ميول النفس البشرية وهما العداوة والحسد فيرى أن العداوة تقترن بالعقل الذى يسوسها، أما الحسد فلا يواكبه العقل. والحسد يبدأ بالأدنى أما العداوة فتبدأ بالأبعد. والحسد يستمر ما دام المحسود، أما العداوة فتحدث لعلة وتزول بزوال

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٤٥.

تلك العلة. والعداوة تضعف وتخلق وتمل، أما الحسد فيظل غضا جديدا لا يبيد. والحسد آلم وآذى من العداوة، وهو ناتج عن فساد الطبع واعوجاج التركيب واضطراب النفوس. والحسد أخ الكذب فهما لا يفترقان، أما العداوة فقد تخلو من الكذب. والحسد أفشى في أهل العلم، وحسد الجاهل أهون من حسد العارف الفطن(١).

ويظهر أن كلام الجاحظ في هذا الموضوع صادر عن تجربة مرت به؛ فهو يقول إن كثيرا من الكتاب حسدوه على إنتاجه، وراحوا يقللون من شأنه

والحق أن للجاحظ لفتات نفسية رائعة منها أنه قد لاحظ أن الفساد أسرع إلى الناس من الصلاح، فلو "جالست الجهال والنوكى والسخفاء والحمقى شهرا فقط لم تنق من أوضار كلامهم، وخبال معانيهم بمجالسة أهل البيان والعقل دهرا، لأن الفساد أسرع إلى الناس، وأشد التحاما بالطبائع"(٢).

---

(١) الجاحظ: فصل ما بين العداوة والحسد، ضمن رسائل الجاحظ جـ ١ ص ٣٣٧ ـ ٣٧٣.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين جـ١ ص ٨٦ .

د ـ الإنسان كائن اجتماعي:

الإنسان عند الجاحظ كائن اجتماعي، والاجتماع ضرورة له. يقول الجاحظ: "ثم اعلم رحمك الله تعالى ـ أن حاجة بعض الناس إلى بعض صفة لازمة في طبائعهم، وخلقة قائمة في جواهرهم، وثابتة لا تزايلهم، ومحيطة بجماعتهم، ومشتملة على أدناهم وأقصاهم، وحاجتهم إلى ما غاب عنهم ـ مما يعيشهم ويحييهم، ويمسك بأرماقهم، ويصلح بالهم، ويجمع شملهم، وإلى التعاون في درك ذلك، والتوازر عليه ـ كحاجتهم إلى التعاون على معرفة ما يضرهم، والتوازر على ما يحتاجون من الارتفاق بأمورهم التى لم تغب عنهم؛ فحاجة الغائب موصولة بحاجة الشاهد لاحتياج الأدنى إلى معرفة الأقصى، واحتياج الأقصى إلى معرفة الأدنى؛ معان متضمنة وأسباب متصلة، وحبال منعقدة. وجعل حاجتنا إلى معرفة أخبار من كان قبلنا، كحاجة من كان قبلنا إلى أخبار من كان قبلهم وحاجة من يكون بعدنا إلى أخبارنا؛ ولذلك تقدمت في كتب الله البشارات بالرسل، ولم يسخّر لهم جميع خلقه، الا وهم يحتاجون إلى الارتفاق بجميع خلقه. وجعل

الحاجة حاجتين: إحداهما قوام وقوت، والأخرى لذة وإمتاع وازدياد في الآلة، وفي كل ما أجذل النفوس، وجمع لهم العتاد. وذلك المقدار من جميع الصنفين وفقا لكثرة حاجتهم وشهواتهم، وعلى قدر اتساع معرفتهم وبعد غورهم، وعلى قدر احتمال طبع البشرية وفطرة الإنسانية. ثم لم يقطع الزيادة إلا لعجز خلقهم عن احتمالها، ولم يجز أن يفرق بينهم وبين العجز، إلا بعدم الأعيان، إذ كان العجز صفة من صفات الخلق، ونعتا من نعوت العبيد.

لم يخلق الله تعالى أحدا يستطيع بلوغ حاجته بنفسه، دون الاستعانة ببعض من سخر له، فأدناهم مسخر لأقصاهم، وأجلّهم ميسر لأدقهم، وعلى ذلك أحوج الملوك إلى السوقة في باب، وأحوج السوقة إلى الملوك في باب، وكذلك الغنى والفقير، والعبد وسيده. ثم جعل الله تعالى كل شيء للإنسان خولا، وفي يده مذللا ميسرا، إما بالاحتيال له والتلطف فى إراغته واستمالته، وإما بالصولة عليه، والفتك به، وإما أن يأتيه سهوا و رهوا. على أن الإنسان لولا حاجته إليها لما احتال لها، ولا صال عليها. إلا أن الحاجة تفترق في الجنس والجهة والجبلة وفي الحظ

والتقدير. ثم تعبد الإنسان بالتفكير فيهـا، والنظـر فـي أمورها، والاعتبـار بمـا يـرى، ووصـل بيـن عقولهـم وبيـن معرفـة تلـك الحكـم الشـرفة، وتلـك الحاجـات اللازمة بالنظر والتفكير، وبالتنقيب والتنقير، والتثبت والتوقف؛ ووصل معارفهم بمواقع حاجاتهم إليهـا، وتشاعرهم بمواضع الحكم فيها بالبيان عنها.

وهو البيان الذى جعلـه اللـه تعـالى سـببا فيمـا بينهم، ومعبرا عن حقائق حاجاتهم، ومعرفا لمواضـع سد الخلة ورفع الشبهة، ومداواة الحـيرة، ولأن كـثرة النـاس عـن النـاس أفهم منهم عن الأشـباح الماثلـة، والأجسام الجامدة والأجرام الساكنة، التـى لا يتعـرف مـا فيهـا مـن دقـائق الحكمـة وكنـوز الآداب، وينـابيع العلم إلا بالعقل الثاقب اللطيف، وبالنظر التـام النـافذ، وبالأداة الكاملة، وبالأسـباب الوافـرة، والصـبر علـى مكروه الفكر، والاحتراس من وجوه الخدع والتحفـظ مـن دواعـى الهـوى؛ ولأن الشـكل أفهـم عـن شـكله، وأسكن اليه وأصـب بـه. وذلـك موجـود فـي أجنـاس البهائم، وضروب السباع. والصبى عن الصبى أفهـم لـه، ولـه آلـف وإليـه أنـزع، وكذلـك العـالم والعــالم، والجاهل والجاهل، وقال الله عز وجـل لنبيـه صلـى

الله عليه وسلم: ﴿ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا﴾ لأن الإنسان عن الإنسان أفهم، وطباعه بطباعه آنس، وعلى قدر ذلك يكون موقع ما يسمع منه.

ثم لم يرض لهم من البيان بصنف واحد، بل جمع ذلك ولم يفرق، وكثر ولم يقلل، وأظهر ولم يخف، وجعل آلة البيان التى بها يتعارفون معانيهم، والترجمان الذى إليه يرجعون عند اختلافهم، في أربعة أشياء، وفى خصلة خامسة، وإن نقصت عن بلوغ هذه الأربعة في جهاتها، فقد تبدل بجنسها الذى وضعت له وصرفت إليه، وهذه الخصال هي: اللفظ، والخط، والإشارة، والعقد؛ والخصلة الخامسة ما أوجد من صحة الدلالة، وصدق الشهادة ووضوح البرهان، في الأجرام الجامدة والصامتة والساكنة التى لا تتبين (لا تفهم) ولا تحس، ولا تفهم ولا تتحرك إلا بداخل يدخل عليها، أو عند ممسك خليّ عنها، بعد أن كان تقييده لها.

ثم قسم الأقسام، ورتب المحسوسات، وحصّل الموجودات، فجعل اللفظ للسامع، وجعل الإشارة للناظر، وأشرك الناظر واللامس في معرفة العقد، إلا بما فضل الله به نصيب الناظر في ذلك على قدر

نصيب اللامس؛ وجعل الخط دليلا على ما غاب من حوائجه عنه، وسببا موصولا بينه وبين أعوانه؛ وجعله خازنا لما لا يأمن نسيانه، مما قد أحصاه وحفظه، وأتقنه وجمعه، وتكلف الإحاطة به؛ ولم يجعل للشام وللذائق نصيبا"(١).

هـ النزعة الإنسانية عند الجاحظ:

لا شك أن اهتمام الجاحظ بالانسان يوضح لنا أن النزعة الانسانية ماثلة عنده ومتوافرة.

وهي تظهر لنا في تناوله مختلف فئات الناس بالمراقبة والتأمل والدراسة، فالجاحظ يتكلم عن الملوك والولاة والكتاب والحجاب والقواد، كما يتحدث عن المعلمين والتجار والوكلاء والمغنين والقضاة والأطباء والعطارين والوراقين، وسائر أصحاب الحرف والمهن. ويدرس أصحاب العاهات والمنحرفين أخلاقيا كاللصوص والقحاب واللاطة والبرصان والعرجان والعميان والحولان والطفيليين والبخلاء. ولا ينسى أعراق الناس وأجناسهم، فيبحث

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ج ١ ص ٤٢ ـ ٤٦ .

في فصل ما بين الرجال والنساء والفرق بين الذكر والأنثى، وفي السودان والبيضان، وفي العرب والعجم والترك، وفي الموالي والسادة، وفي الصرحاء والهجناء، وفي الشعوبية وغير ذلك.

كما تتجلى النزعة الانسانية ــ أيضا ــ في العناية بتحليل نفسية الانسان، كما ذكرنا من قبل، والغوص في أعماقها لمعرفة الميول الدفينة والغرائز الفطرية والدوافع التى تحرك الانسان وتحدد سلوكه وطباعه.

وتظهر النزعة الانسانية لدى الجاحظ في الحديث عن المكانة التى تبوأها الانسان في سلم المخلوقات. فالانسان في نظر الجاحظ سيد مخلوقات هذا العالم، وقد سخرها الله تعالى له، تعمل لخدمته، وأبيح له التصرف فيها والاستمتاع بخيرات الأرض جميعا. وقد تميز الانسان بهبة عظيمة منحه الله إياها، وهي العقل الذى يعرف به نفسه والعالم والله تعالى. وما عليه إلا أن يشكرالله على تلك المنحة ويستغلها خير استغلال، فينظر ويتأمل ويعرف ويعتبر(١). وكيف لا "والفلك وجميع ما تحتويه

---

(١) الجاحظ: الدلائل والاعتبار ص ٨ .

الأرض، وكل ما تقلـه أكنافهـا للانسـان خـول ومتـاع إلى حين"(١).

كذلك تظهر النزعة الانسانية عند الجاحظ فـي الدعوة إلى التسامح بين أبنــاء الأمـم المختلفـة، حيـث دعا الجاحظ إلى نبذ العصبيات القومية، وإلى التعاون والمحبـة بيـن الشـعوب المختلفـة الأعــراق واللغــات والمذاهب والتقاليد، لأن الذى يجمع الناسْ أكـثر ممـا يفرقهـم، وهـم يرتبطـون جميعـا برابطـة الانتمــاء إلا النوع الانساني، وكلهم مخلوقات الله عز وجل.

لقـد وردت هـذه الأفكـار فـي أمـاكن عـدة مـن كتــب الجــاحظ ورســائله ولا سـيما كتـاب "البيـــان والتبيين" في سياق رده على الشـعوبية، وفـي رسـالة "مناقب الترك وعامة جند الخلافة". وهناك ملامح من النزعة الانسانية عند الجاحظ نجدها فـي نظرتـه إلـى الجمـال وموقفـه مـن المسـاواة بيـن المـرأة والرجـل وحملته على الخصاء .

وإذا كــان المفكــرون الآخـــذونْ بالاتجـــاه الانساني، قد أهملوا العلوم الطبيعية واهتمـوا بـالعلوم

---

(١) الجاحظ: كتاب القيان، رسائل الجاحظ ج ٢ ص ١٤٦ .

الانسانية كالأدب والفلسفة والدين والأخلاق والتاريخ والخطابة واللغة، فإن الجاحظ قد اهتم مثلهم بالانسان وبهذه العلوم التى تهدف إلى تنمية قواه العقلية والجسدية وتقويم أخلاقه وإرهاف حسّه الجمالى، ومع ذلك اعتنى بالطبيعة وعلومها. وباختصار لقد عرف الجاحظ كيف يوفق بين النزعة الانسانية والنزعة الطبيعية، مع اهتمامه بمهاجمة الأوهام والأساطير ودعوته إلى الشك في الأخبار وإلى تحكيم العقل والمنطق، ونقده لشيوخ الفرق الاسلامية من شيعة وخوارج ومرجئة، ومحاولته إقامة الدين الاسلامي على فكرة العناية أو الحكمة الإلهية التى تتجلى بأوضح معانيها في الطبيعة ولا سيما الحيوانات بجميع أنواعها. غير أن الجاحظ لم يتصور الانسان عالما مطلقا في حد ذاته كما هو الحال عند الانسانيين المحدثين، وإنما هو خاضع لقدرة الله ومشيئته. فرحم الله الجاحظ ذلك المفكر العملاق، وصاحب النزعة الانسانية.

فهرس المصادر والمراجع

(مراعى فيه حذف الألف واللام وابن وأبو).

١ ـ إخوان الصفا: رسائل طبعة ١٣٠٥هـ

٢ ـ أرسطو: المنطق، تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوى، القاهرة ١٩٤٨م

٣ ـ أرسطو: طباع الحيوان، ترجمة يحيى بن البطريق، تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوى، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٧م، (ويضم الكتاب المقالات العشر الأولى).

٤ ـ أرسطو: أجزاء الحيوان، ترجمة يحيى بن البطريق، تحقيق الدكتورعبد الرحمن بدوى، وكالة المطبوعات، الكويت ١٩٧٨م. (ويضم الكتاب المقالات من الحادية عشرة إلى الرابعة عشرة).

٥ ـ أرسطو: كون الحيوان، ترجمة يحيى بن البطريق، تحقيق يان بروخمان، مؤسسة دى فوى ليدن، ١٩٧١م، (ويضم الكتاب المقالات الخمس الأخيرة).

٦ ـ الأشعرى (أبو الحسن): مقالات الإسلاميين، استانبول ١٩٣٠، والقاهرة ١٩٦٩م.

٧ ـ أمين (أحمد): ضحى الإسلام، الطبعة السادسة، القاهرة ١٩٧١.
٨ ـ بدوى (عبد الرحمن): شروح على أرسطو مفقودة في اليونانية ورسائل أخرى، دار المشرق، الطبعة الأولى بيروت، ١٩٧٢م.
٩ ـ البغدادى (أبو البركات): المعتبر فى الحكمة، جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن ١٣٥٨هـ.
١٠ ـ البغدادى (الخطيب): تاريخ بغداد، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٣١م.
١١ ـ البغدادى (عبد القاهر) : الفرق بين الفرق، دار الآفاق، بيروت ١٩٧٣م.
١٢ ـ بينيس (س.) : مذهب الذرة عند المسلمين وعلاقته بمذاهب اليونان والهنود، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة، القاهرة ١٩٤٦م.
١٣ ـ التوحيدى (أبو حيّان): المقابسات، تحقيق حسن السندوبى، القاهرة ١٩٢٩.
١٤ ـ التوحيدى (أبو حيان): الإمتاع والمؤانسة.

١٥ ـ الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): آثار الجاحظ، تحقيق عمر أبو النصر، بيروت، ١٩٦٩م.
١٦ـ الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): البرصان والعرجان والعميان والحولان، دار الإعتصام، القاهرة.
١٧ ـ الجاحظ: (أبو عثمان عمرو بن بحر): البيان والتبيين، دار الفكر للجميع، بيروت، ١٩٦٧م.
١٨ ـ الجاحظ: (أبو عثمان عمرو بن بحر): التربيع والتدوير، تحقيق فوزى عطوى، بيروت ١٩٦٩م.
١٩ ـ الجاحظ: (أبو عثمان عمرو بن بحر): البخلاء، تحقيق طه الحاجرى، دار المعارف بمصر ١٩٧١م.
٢٠ ـ الجاحظ: (أبو عثمان عمرو بن بحر): الحيوان، تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى الحلبى، القاهرة ١٩٤٥.
٢١ ـ الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): رسائل الجاحظ، تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون،

مكتبة الخانجى بمصر سنة ١٩٦٥م.

٢٢ ـ الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): المختار فى الرد على النصارى، تحقيق الدكتور محمد عبد الله الشرقاوى، القاهرة.

٢٣ ـ الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير، المطبعة العلمية، حلب، ١٩٢٨م.

٢٤ ـ جبرى (شفيق): الجاحظ، مجلة المجمع العلمى العربى، دمشق.

٢٥ ـ الحاجرى (طه): الجاحظ: حياته وآثاره، دار المعارف بمصر ١٩٦٢م.

٢٦ ـ الحسينى (د. أحمد حماد): كتاب الحيوان للجاحظ، مجلة تراث الإنسانية القاهرة ١٩٦٤م.

٢٧ ـ خليفة (حاجى): كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون، المطبعة الإسلامية، طهران ١٣٧٨هـ.

٢٨ ـ دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية، المجلد السادس.

٢٩ ـ دارون (تشارلز): أصل الأنواع، ترجمة

إسماعيل مظهر، بيروت ١٩٧٣م.
٣٠ ـ دى بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة، القاهرة ١٩٥٤.
٣١ ـ الرازى (أبو بكر): رسائل فلسفية، دار الآفاق، بيروت، ١٩٧٧م.
٣٢ ـ ابن رشد: تلخيص كتاب النفس لأرسطو، النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٠م.
٣٣ ـ ابن سينا: الإشارات والتنبيهات، دار المعارف بمصر ١٩٦٠م.
٣٤ ـ الشهرستاني: الملل والنحل، مصطفى البابى الحلبى، القاهرة ١٩٦١م.
٣٥ ـ عبد العليم (د. أنور): قصة التطور، دار القلم، القاهرة.
٣٦ ـ عزام (د. محفوظ): نظرية التطور عند مفكرى الإسلام، دار الهداية، القاهرة ١٩٨٦م.
٣٧ ـ عفيفى (د. محمد الصادق): تطور الفكر العلمى عند المسلمين، القاهرة ١٩٧٧م.
٣٨ ـ الفارابي: آراء أهل المدينة الفاضلة، دار

المشرق، بيروت ١٩٧٣.
٣٩ ــ فرج (د. حسين) وآخر: دراسات فى علم الحيوان وراد التاريخ الطبيعى، القاهرة، ب. ت.
٤٠ ـ ابن قتيبة: عيون الأخبار، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة ١٩٦٣م.
٤١ ــ القزوينى: عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، مصطفى البابى الحلبى، القاهرة ١٩٧٠م.
٤٢ ــ كرم (يوسف): الطبيعة وما بعد الطبيعة، الطبعة الثالثة، القاهرة.
٤٣ ــ محجوب (فاطمة): دائرة معارف الشباب، الطبعة الأولى، القاهرة.
٤٤ ــ ابن المرتضى: طبقات المعتزلة بيروت، ١٩٦١م .
٤٥ ـ المسعودى: مروج الذهب، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٧٣م .
٤٦ ـ موريس روكلن: تاريخ علم النفس، ترجمة على زيعور، دار الأندلس، بيروت ١٩٧٨م .

٤٧ ـ الموسوعة العربية الميسرة بإشراف محمد شفيق غربال، القاهرة.
٤٨ ـ مييلى (الدو): العلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العالمى، الترجمة العربية، القاهرة ١٩٦٢م.
٤٩ ـ ابن نباتة: سرح العيون بشرح رسالة ابن زيدون، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٣٤م.
٥٠ ـ الهاشمى (د. محمد يحيى): تحليل رأى الجاحظ فى الطيور المهاجرة، مجلة الثقافة العدد ٢٨٠، السنة السادسة، القاهرة ١٩٤٤م.
٥١ ـ هويدى (د. يحيى): محاضرات فى الفلسفة الإسلامية، القاهرة ١٩٦٦م.



الفهرست

الموضوع	الصفحة

المقدمة ٥

الفصل الأول: مكانة الجاحظ ومنهجه... ٩

أ ـ مكانة الجاحظ العلمية والفكرية. ١١

ب ـ قواعد المنهج عند الجاحظ.... ١٩

الفصل الثانى: جوانب الفلسفة الطبيعية عند الجاحظ...................... ٣١

الفصل الثالث: الجماد (الموات)........ ٤٩

أ ـ معنى الجماد................. ٥١

ب ـ الجزء الذى لا يتجزأ........ ٥٢

جـ ـ الجوهر والعرض........... ٦٩

الفصل الرابع: الحيوان................ ٧٧

أ ـ مصادر ثقافة الجاحظ فى علم الحيوان......................... ٧٩

ب ـ السبب فى تأليف الجاحظ لكتاب الحيوان......................... ٨٦

الموضوع	الصفحة

جـ ـ وصف بعض الحيوانات بين أرسطو والجاحظ.......................... ٨٩
د ـ مقارنة بين أرسطو والجاحظ.. ١٠٠
هـ ـ موقف الجاحظ من أرسطو.. ١٢٠
الفصل الخامس: الجاحظ والعلم الحديث. ١٢٧
أ ـ سيكولوجية الحيوان عند الجاحظ ١٢٩
ب ـ الجاحظ ونظرية التطور...... ١٣٦
الفصل السادس: الإنسان عند الجاحظ... ١٥٩
أ ـ ما الإنسان؟................. ١٦١
ب ـ العقل....................... ١٦٥
جـ ـ النفس الإنسانية............ ١٧٢
ء ـ الإنسان كائن اجتماعى...... ١٨٢
هـ ـ النزعة الإنسانية عند الجاحظ. ١٨٦

فهرس المصادر والمراجع......... ١٩١
فهرس الموضوعات............... ٢٠٠